تدمر
شاهد ومشهود

محمد سليم حماد، أردني، قضى 11 عاماً في سجن تدمر الصحراوي في سورية ، وذاق ورأى خلالها صنوف العذاب والهوان ، الذي تُمارسه أجهزة الأمن و القمع السورية بحق أبناء شعبها ، محمد سليم حماد لم يكتم شهادته، بل أصدرها في كتاب ، لتكون شهادة على وحشية ودموية هذا النظام .

مقدمة

كانت الحياة ضحى ذلك اليوم البارد من آخر أيام سنة 1991 تمضي في مدينة تدمر الصحراوية على غير ما جديد . فالأطفال مضوا مبكرين إلى مدارسهم . والأمهات في المنازل يلُكْن الأحاديث مع الجارات وقد أمنّ انصراف الرجال إلى أعمالهم وخلو البيت من المنغصات . والدكاكين في السوق الرئيسي للبلدة استقبلت روادها الذين اختلط النساء فيهم بالرجال ، والمدنيون بالشباب المجندين ، والمترجلون بالراكبين ، والدواب بالسيارات .. وكلٌ ينفث من صدره هماً أو يرسل زفرة التياع . فهذا جندي متأخر في إجازته يريد اللحاق بوحدته العسكرية ولكن سائق السيارة الذي لا يزال يأمل في اصطياد راكب إضافي يماطل ولا يتحرك . وصاحب الدكان ضاق ذرعاً بزبونته التي أطالت معه الجدال من أجل أن يخصم لها من سعر الحاجيات التي اشترتها بضع ليرات هي كل ربحه من هذه الصفقة التافهة ، وما عادت تكف عن الرجاء والاستعطاف . وحتى الحمار الذي حمّله صاحبه من البرتقال أكثر من قدرته في هذا السن المتقدم صمم فجأة على تسجيل موقف مشرف .. فحرن وسط الطريق العام ، وأحدث أزمة سير سببت له ولصاحبه سيلاً من الشتائم بالألسنة أو الزمامير النزقة .. لكن الحمار وحده هو الذي لم يهتم !

وعلى هذا الطريق ومن حيث تدلف السيارات القادمة من جنوب المدينة فتعبرها باتجاه حمص ، كان أحد باصات "التويوتا" أحمر اللون يغذ بنا السير نحو الاتجاه نفسه ، من غير أن يلفت انتباه أحد من كل هؤلاء الناس أو يعني لهم أي شيء . لكننا نحن ركاب الحافلة الذين ارتدينا جميعاً ملابس عسكرية كاكية اللون تكاد تكون جديدة ، وقبعنا في مقاعدنا يلفنا صمت مطبق ، كنا اللحظة كالخارج من رحم أمه أول مرة ، أو كالقادم إلى الأرض من كوكب لم يكن فيه من البشر من قبل أحد . وحينما أطلق السائق النزق شتيمة سافلة للحمار وصاحبه ، وتخطاهما يكاد يحرق محرك الباص من غير سبب حقيقي أو مبالاة .. كنت وبقية الركاب الآخرين لا نزال نحملق في الحمار صاحب الموقف .. وببقية عباد الله حوله . ونتابع بعيون نهمة قدر ما هي وجلة كل شاردة وواردة تخطر حولنا . ثم لا نلبث أن نخفض رؤوسنا بانكسار .. ونرد الطرف وهو حسير .. وننصت متوجسين خشية أن يكون أمر ما قد صدر ونحن في سرحاننا هذا فأوجب علينا تلكؤنا بالإجابة العقاب !

ويمضي الباص بنا في اتجاه دمشق .. وتمضي بي الهواجس تسري من جديد ، وتتفجر في داخلي العبارة التي لا تزال تعصف في أذني كالبركان منذ أيام ثلاثة مضت ولا تكف عن الترداد تقول :

"سيادة الرئيس أصدر قراراً بالعفو عنكم .. وإن هي إلا أيام حتى تكونوا بين أهاليكم . "

لكنني أراني كالملسوع ومن غير مقدمات يقفز من أعماق أعماقي صوت آخر كحشرجة المحتضر يقول : بعد اثني عشرة سنة .. من يُصَدِّقْ ؟ ومن يثق بمن ؟ ثم ماذا إذا صَدَقُوا ؟ أي مستقبل لنا وأية حياة ؟ وأين سيكون موقعنا بين هؤلاء الذين فارقناهم في أعمارنا فصاروا الآن

آباء ورجالاً لهم في الحياة مركز وموقع ؟ أو موقفنا من أولاء الذين خلفناهم وراءنا حتى من غير أن نقول لهم كلمة وداع !
وسرعان ما أنتبه من حواري الصامت هذا على أحد المرافقين يقهقه بصوت مجلجل من غير أن أفهم السبب .. أتأمله من طرف عيني فكأنه بشعره النابت وشاربيه المتدليين وسحنته السمراء نوع من المخلوقات انقرض من عهد بعيد واختفى ، ثم ها هو ذا يعود الساعة إلى الوجود !
كان من أغرب المشاهد حقاً علي وعلى قرابة خمسة وثلاثين أخاً يستقلون الباص معي أن نبصر رجلاً طبيعي الهيئة معافى البدن يقهقه ملأ شدقيه بلا خوف ولا وجل .. بعد أكثر من عشرة أعوام أمضيناها في سجن تدمر الصحراوي ، لا نبصر إلا وجوه المعتقلين صفراء ناحلة ، ورؤوس نزلاء الزنازين محلوقة كالبطيخة الملساء .. وهاماتهم مطأطئة من القهر على الدوام .. تتلقى كل أصناف العذاب ، ولا حق لها أن تنبس ولو ببنت شفة !
كانت تلك هي نهاية الكابوس المرعب أو مراحل نهايته الأخيرة . وكانت المشاعر والهواجس خليطاً من الفرح والوجوم .. والبشرى والتوجس .. والتشوف والتخوف . لكن البدايات كانت مذ كانت غير ذلك .. وفاتحة الرحلة ها هي كما ارتحلتُ بها من قديم الزمان

.

سنوات الشباب

اسمي محمد سليم حماد . ولدت عام 1960 في العراق رغم أن أهلي من فلسطين . فوالدي رحمه الله سليم حماد المفتش في وزارة التربية والتعليم بالأردن وقتذاك كان في مهمة عمل في العراق حين وضعتني أمي . ثم لم تلبث الأسرة أن عادت إلى مدينة نابلس ، فجرش . قبل أن تحط بنا الرحال في مدينة الزرقاء بالأردن ، حيث نشأت وترعرعت وسط إخوتي الأربعة . وأمضيت عشر سنوات كاملات من سن التاسعة إلى التاسعة عشرة .
لم تكن أسرتي بالأسرة الملتزمة أو صاحبة الانتماء السياسي المحدد . الوالدان يصليان كعادة أهل البلد ، لكن الدين عندهما لا يزيد عن ذلك بكثير . وحين بدأت أتردد على المسجد وأبدي وأنا في المرحلة الإعدادية ما يمكن أن يسمى اهتماماً أكثر بالدين ، بدأت علامات التململ تظهر في البيت . وحين تحول هذا الاهتمام إلى درجة أشد وأخذت أتفاعل مع الإسلام كقضية وبدأت أنشط في هذا الاتجاه ، انقلب التململ الخفي إلى معارضة وتحذير . لكننا تجاوزنا تلك المعارضة بالتدريج بفضل الله . ولم أكن واقع الأمر أحاول إلا أن أطبق الكلام الذي أسمعه في مسجد عثمان بن عفان الذي اعتدت المداومة على الصلاة فيه والالتقاء بالشباب في رحابه من غير رابطة محددة إلى ذلك الوقت . كانت القضية مجرد عاطفة تجيش وتستعر ، لكن التفاعل مع الدعوة إلى الله أخذ يغمرني بشكل متزايد ، وتبليغ الناس هذا النور الذي بلغته أخذ يلح علي كهاجس دائم .
كنا مع مجموعة من الأصدقاء الأصفياء نتنافس في الخير . ولا أزال أذكر كيف كنت أستيقظ قبل أذان الفجر بساعة أو أكثر حتى في أشد أيام الشتاء برودة لأذهب إلى بيوت أولاء وأوقظهم للصلاة . وبعد صلاة الجماعة في المسجد كانت لنا جلسة لقراءة المأثورات . وجلسات ولقاءات

في المدرسة بين الصفوف ، وبعد المدرسة ، وفي الصلوات الأخرى . ولم تلبث الأفكار أن بدأت بالتبلور لدي وأنا أتدرج في مراحل الدراسة حتى ملكت علي كل كياني ، وصرت أنفق كل تفكيري في البحث عن مجال نطبق فيه هذه الأفكار إلى حيز الوجود ، ووصلت إلى قناعة تامة بأنه مهما بذلت في سبيل ذلك الهدف فسيرخص دونه . ولم ألبث أن وجدتني عضواً في جماعة الإخوان المسلمين التي تنشط في الأردن بشكل علني ، ويدخلها الناس وينتمون إليها بشكل طبيعي وعادي . وعندما بلغت المرحلة الثانوية كنت مسؤولاً عن الطلبة المنظمين في مدرستي ولم يكن ذلك بالأمر الذي أخفيه .

منهج ونظام

كانت الحركة الإسلامية في الأردن وقتذاك في بداية تشكيل جديد بعد محنة أيلول عام 1970 . وكان إخواننا وموجهونا يُعْنَوْنَ بتربيتنا ويَجْهَدون لنقل الإسلام المتكامل إلى أذهاننا وعقولنا . فتعلمنا أن هذا الدين هو الطريق الذي تسعد البشرية من خلاله وحده ، وأنه نظام متكامل للحياة .. فهو منهج سياسي وحل اقتصادي وخلق وعبادة ونظام . هو دين الله وسعادة البشرية فيه ، وعلينا نحن الذين تبنيناه أن ننشره بين الناس ونجهد لتطبيقه على شكل نظام سياسي كامل . ولكم كان يحلو لي أن أنشد وقتها بكل جارحة كم جوارحي أبياتاً من قصيدة "شباب الإسلام" للشهيد هاشم الرفاعي يقول فيها وكأنه يتحدث بلسان حالي :

ملكنا هذه الدنيا قرونا
وأخضعها جدود صالحونا
وسطرنا صحائف من ضياء
فما نسي الزمان ولا نسينا

ثم إذا نظر إلى واقعنا ونظرت معه أنشدت أبياته التاليات :

وما فتىء الزمان يدور حتى
مضى بالركب قوم آخرونا
ترى هل يرجع الماضي فإني
أذوب لذلك الماضي حنينا

وتراني من ثم أهتف بانفعال أريد أن أسمع العالم كله أقول :

دعوني من أمان كاذبات
فلم أجد المنى إلا ظنونا

وهاتوا لي من الإيمان نوراً
وقووا بين جنبي اليقينا
أمد يدي فأنتزع الرواسي
وأبني المجد مؤتلقاً مكينا

انه لصعب حقاً أن أصف مشاعري وقتذاك ، لكن الإنسان إذا تبنى فكرة بهذا العمق وهذا القدر من الجدية فإنه يجند كل سكنة وحركة من حركاته في سبيلها . ويشعر أنه على استعداد كامل لانتزاع الرواسي من أجلها .

مخيم النخبة

في عام 1977 عقدت "الندوة العالمية للشباب الإسلامي" مخيماً لها في منطقة "دبين" بالأردن قدر لي أن أشارك فيه على الرغم من أنني كنت لا أزال في المرحلة الثانوية بعد والمخيم مخصص للجامعيين . وكانت العادة أن نشهد مخيماً أو اثنين في العام نتدرب فيهما على الحياة الخشنة واللياقة البدنية ، ونتلقى من خلالهما بعض المحاضرات والدروس التربوية . لكن الجديد في ذلك المخيم وقتذاك أنني التقيت وللمرة الأولى بنخبة من إخواننا السوريين ، وتعرفت عن كثب على قضيتهم ومعاناتهم وجملة هامة من أفكارهم . الأمر الذي كان له وقع مختلف على نفسي لم تظهر آثاره إلا بعد سنوات .

معاناة مرة

كان مسؤول الخيمة التي نزلت فيها أخاً سورياً اسمه صبري غنام وكنيته أبو عمار . ولا أزال أحس بالأثر العميق الذي تركه هذا الأخ المربي في نفسي ، وأتذكر تماماً صور الإخوة الآخرين والمحبة التي قامت بيننا منذ ذلك الوقت . وعندما دخلت سورية بعد ذلك بسنوات عرفت أن الذين التقيتهم كانوا طليعة الإخوة السوريين ونخبتهم : عصام وعبد الله قدسي . جمال عقيل . جلال جلال . عدنان شيخوني .
كذلك حضر المخيم وقتها الشيخ سعيد حوى وألقى فينا محاضرة مطولة وقتها . لكن المحاضرة التي ألقاها الأخ عدنان شيخوني كانت أول كلام أسمعه عن النظام السوري وتركيبته الطائفية وتسلطه وطغيانه ، وكانت بداية اطلاعي على معاناة إخواننا المرة في سورية . وأتذكر أن أطرافاً من أحاديث وصلتني في المخيم أيضاً عن عمليات الشيخ مروان حديد وقتها . فلما تفجرت الأحداث في سورية بعد عامين كنت أحس أنني قريب من هؤلاء الإخوة ومن قضيتهم ،

ووجدتني عندما أتى من أتى وسألني أن أساعد في هذا الاتجاه أَقْبَلُ بلا تردد .. وأُقْبِلُ بكل امتنان وسعادة .

حادثة المدفعية

كانت أيام المرحلة الثانوية قد انقضت وحصلت على المجموع الذي أهلني لدخول كلية العلوم بالجامعة الأردنية . وفجأة ومن غير مقدمات بلغتنا أواخر شهر حزيران عام 1979 أنباء حادثة المدفعية بحلب ، والتي اتهم الإعلام السوري بها جماعة الإخوان المسلمين وأعلن الحرب عليها من فوره . وسرعان ما انتقل صدى الحادثة إلى صفوف الإخوان الأردنيين ، وعاد الحديث عن طائفية النظام السوري ومظالمه وبطشه بالإسلاميين يسري بيننا ، في الوقت الذي أخذت الصحف المحلية والعربية تسلط الأضواء بطرق شتى على الحادثة ومنفذيها .. وعلى خلفيات الوضع السياسي والطائفي في سوريا بشكل عام .
في ذلك العام كانت مشاعرنا الإسلامية مشدودة مع الثورة الإيرانية أيضاً ، وكانت العواطف الثورية آخذة في التنامي بين أوساط الإخوان الأردنيين . وعلى الرغم من أن العمل المسلح لم يكن وارداً في تربيتنا الإخوانية ، وكانت الجماعة كما أفهمونا دائماً مجرد حركة دعوية وحسب ، إلا أن الفكرة كانت تتشكل وفق نفسية كل فرد منا . ولذلك نشأت مدارس متعددة داخل التنظيم ، التزم بعضها بتوجيهات القيادة وتعليماتها ، ورأى البعض نتيجة حماسته أن علينا أن نبادر ونتصرف بشيء عملي لخدمة هذا الدين ، وأنه لا منفذ لتحقيق ذلك وسط هذه الظروف إلا الاستعانة بالسلاح . وبعد تفجر الأحداث في سورية قوي هذا الاتجاه عموماً ، ولذلك وعندما بدأت أقدم المساعدة للإخوة السوريين كنت في غاية السعادة أحس أنني أقوم الآن بعمل حقيقي جهادي لتطبيق الإسلام الذي حملته كفكرة طوال السنوات الماضية .

إلى دمشق

كانت طبيعة المساعدات التي قدمناها للإخوة السوريين اللاجئين إلى الأردن مجرد خدمات اعتيادية لتسهيل تنقلاتهم واستئجارهم للبيوت داخل البلد . لكننا كنا من خلال ذلك نتعرف أكثر على خلفية الأحداث ونحس المأساة التي تجسدها عوائل كريمة نزحت عن بلادها خوف الملاحقة والاعتقال ، وشباب متفوقون تركوا جامعاتهم ومدارسهم ليعيشوا حياة الاغتراب والتشرد القسري . وكنا نسمع من هؤلاء روايات مثيرة عن البطولات التي تجري ، ونتفاعل مع قصص المواجهات التي يقوم بها حفنة من الشباب في مقابل نظام دكتاتوري كامل العدة والعتاد ، فكأنها ضرب من الخيال . ومن خلال ذلك تعرفت على الكثير من الشباب السوريين

وقياداتهم . ولم ألبث في خضم ذلك أن تلقيت رسالة من سوريا تتحدث عن قبولي في كلية الهندسة المدنية فيها ، والتي كنت قد تقدمت إليها خلال الفترة الماضية رغبة مني في دراسة هذا الفرع الذي أميل إليه . وبالفعل رتبت أموري وحزمت حقائبي ويممت مع بدايات عام 1980 شطر دمشق ، تحدوني الآمال بدخول الكلية التي تمنيتها ، والأمنيات بالاقتراب أكثر من تلك القضية الجهادية الساخنة هناك .

وواقع الأمر فإنني وبعد أن ازددت احتكاكاً بقيادة الإخوان السوريين من خلال تعاملي معهم في الأردن ، فقد تم وصلي بالإخوة السوريين في دمشق ، وحددت لي مهمة مبكرة بتوصيل تعليمات القيادة من الأردن إلى دمشق . وفي هذا السياق تم ربطي مع شخص آخر اسمه مازن كان سائق سيارة على الخط نفسه ، لنؤدي هذه المهمة بالتعاون والتنسيق . وفي عمان كان الأستاذ علي البيانوني "أبو أنس" والأستاذ أديب جاجة "أبو الطاهر" أكثر من كنت أتلقى منهم التعليمات والرسائل وأنقلها بمساعدة مازن ، لنسلمها هناك إلى الأخ سالم الحامد "أبو الفَرَج" أو خالد الشامي أو إخوة آخرين كانوا يأتون من مختلف المدن والمحافظات إلى مواعيد محددة لا نعرفهم إلا بأسمائهم الحركية .

بين الطليعة والإخوان

كان الوضع التنظيمي للإخوان في دمشق في بداية تأسيسه تلك الفترة . فالقيادة في الأردن قررت أن تُنْزِلَ مجموعات من شبابها لتأسيس قواعد جديدة . وتم اختيار أبي الفَرَج ليكون أمين سر مركز دمشق ، وفاروق أبو طوق مسؤولاً عسكرياً . وأما المسؤول العام لمركز دمشق فكان غالب الألوسي . ولم تكن طبيعة المرحلة تتعدى تأسيس القواعد وتأمين أماكن لمن ستختاره القيادة في الأردن للنزول . أما خارج هذا الإطار وبالنسبة للعمليات والأحداث الجارية والمتصاعدة على الساحة في دمشق أو في بقية المحافظات فلم تكن معلوماتي عنها كثيرة وقتها . كنا نسمع الأخبار كباقي الناس ، ولكننا لم نكن نعلم كثيراً عن وجود تنظيم آخر هو الذي ينفذ العمليات ، أو عن وجود خلاف تبين أنه لم يكن طارئاً ولا سطحياً بين قيادة الإخوان في الخارج وتنظيم الطليعة في الداخل . لكن خلافاً آخر نشأ لاحقاً بين صفوف قيادة مركز دمشق الجديدة هذه حينما أراد فاروق أبو طوق أن ينفذ عملية تستهدف مبنى للخبراء الروس في دمشق ، فاعترض سالم والإخوة الآخرون في القيادة لأن مخطط التنفيذ وطبيعته كانا يقتضيان استخدام كمية من المتفجرات كفيلة بتدمير المبنى وما جاوره من مبان سكنية لمدنيين عاديين . واشتد الخلاف حول الأمر حتى طلب سالم من الشيخ سعيد حوّى استبدال فاروق فتم له ذلك .

مراسلات

مضت الأمور على هذه الشاكلة . أداوم في كلية الهندسة بشكل عادي ، وأساعد بين وقت وآخر في نقل المراسلات وتبليغ المهمات بين عمان ودمشق ، إلى أن قدر الله في يوم من أيام شهر آذار كنت مسافراً وقتها من دمشق إلى الأردن حينما أوقفوني في مركز الحدود السورية من غير مقدمات وأمروني بمغادرة السيارة والذهاب معهم . وكان من لطف الله أنني لم أكن أحمل معي أية رسالة أو أمر يثير الشك يومها . وبت ليلتها في سجن المخابرات بدرعا من غير أن توجه لي تهمة محددة . ولا أزال أذكر كيف اخترق البرد عظامي وجعلني أعاني الليل كله في الزنزانة وحدي تختلط الأفكار في ذهني وتتقلب علي الهواجس قبل أن تأتي دورية للمخابرات صباح اليوم التالي فتأخذني إلى قيادة الأركان بدمشق .
ورغم أنني لم أشعر بالخوف مما حدث إلا أن الغموض بحد ذاته كان مخيفاً . وعلى الرغم من أنهم لم يعاملوني بشدة تذكر في الأركان وتبين لهم خلال يومين اثنين أنني لم أكن الشخص المطلوب ، إلا أن الفترة التي أمضيتها بين الزنازين وفي أقبية المخابرات حينذاك كانت كافية لأتبين فظاعة الوضع هناك ومقدار الرهبة والمعاناة التي يلاقيها السجناء : طريقة الأسئلة .. الكلمات البذيئة والمسبات .. الصفعات والإهانات .. وأصوات التعذيب واستغاثات المعذبين .
وعندما خرجت وعدت إلى الأردن رأيت الأهل الذين علموا بالخبر مضطربين جداً ، وألحوا علي أن لا أعود . لكنني أصرت على العودة ، ورجعت بالفعل إلى كليتي ، وإلى تأدية مهمتي مراسلاً مثلما كنت بين القيادة في عمان وأبي الفرج في دمشق .

أبو الفَرَج

كان أبو الفرج رحمه الله العنصر القيادي الأنشط في مجموعة قيادة دمشق . وسالم هو الابن الأصغر للشيخ محمد الحامد رحمه الله أحد العلماء المشهورين في حماة . وربما كان ذلك أهم أسباب توليته المزيد من المسؤوليات . ولا أزال أذكر أنه طلب مني أواخر أيامه أن يستلم كل المراسلات القادمة من عمان ليوزعها على مراسلي المحافظات بنفسه . وعندما أبديت له خشيتي أن ترهقه المسؤولية أو أن تزداد نسبة انكشافه بازدياد الذين يلتقيهم أصر . وفي اللقاء التالي قال لي بأن الشيخ سعيد حوى يريد ذلك أيضاً ويأمر به . فلم يسعني إلا أن أجيب طلبه .
وكان من مفارقات الأمور أن اعتقال سالم أتى بعد فترة وجيزة عن طريق اعتقال أحد هؤلاء المراسلين أنفسهم !
لم يكن سالم وهو أمين سر تنظيم دمشق يمشي مسلحاً ، وعندما سألناه عن ذلك مرة قال لنا : ان حدث شيء فلن يتمكنوا من اعتقالي ، فإما أن أموت أو أن أفلت منهم . لكن الظروف أتت على غير ما توقع سالم ، ففي شهر آب عام 1980 تم اعتقال مراسل حمص ، ولم يكن بين اعتقاله

وموعده مع سالم أكثر من ساعة ، لكن الأخ اعترف من شدة التعذيب على الموعد المقرر على موقف باص الزبداني عند وكالة سانا للأخبار .
ولقد حدثني سالم بنفسه فيما بعد كيف وجد مجموعة من المخابرات الذين تنكروا بثوب البداوة وكمنوا في المكان ينقضون عليه فور حضوره ، فيمسكه اثنان منهم من يديه خشية أن يكون مسلحاً ، ويجتمع البقية عليه يوسعونه ضرباً حتى فقد الوعي ، فلما صحي وجد نفسه بين أيديهم في فرع المخابرات لا حيلة له ولا حول .

مفاتيح التنظيم

لم يعترف سالم في البداية إلا أنه مجرد مراسل عادي . لكن العذاب الذي انصب عليه طوال يوم كامل فاق قدرته على الاحتمال . وكانوا عندما اعتقل قد وجدوا مفتاح البيت الذي يتخذه قاعدة خاصة به في جيبه . وسرعان ما طوقوا المكان وداهموا البيت قرب جامع المنصور بدمشق . وكان سالم يستضيف وقتها أخاً مجاهداً اسمه طريف جعمور ، انبرى وتصدى للمداهمة ، وحدثت مقاومة بطولية من الأخ طريف استمرت ثلاث ساعات ، ولم يتمكنوا منه إلا عندما صعدوا مئذنة الجامع وضربوه بقاذفات الآر. بي . جي . واستشهد الأخ . فلما تم لهم ذلك ودخلوا البيت وجدوا فيه بين أوراق سالم رسالة من الأستاذ عبد الله الطنطاوي من عمان يكلفه فيها أمانة مركز دمشق رسمياً ، فعرفوا وقتها من هو سالم بالظبط . وفي نفس المكان عثرت المخابرات على الهويات المزورة التي يستخدمها التنظيم الناشئ والختم الذي كان يختم به سالم فوق الصور ، فتأكدت لهم الفروقات التي سبق واكتشفوها في الهويات من قبل ، وصار كل شاب يستخدم هذا النوع من الهويات في حكم المكشوف ، وسرعان ما جرى اعتقال الكثير من أولئك في الكمائن داخل دمشق وبقية المحافظات أو على الحدود ، كان من ضمنهم عدد من الإخوة السبعة عشر الذين هربوا من سجن كفر سوسة قبل عدة شهور . فإذا أضفنا إلى ذلك اعترافات سالم تحت التعذيب تأكد لنا أن اعتقال أبي الفرج كان ضربة قاسية للتنظيم ، وانكشافاً للمفاتيح الكثيرة التي كانت بيده رحمه الله .

حياة الشهيد !

لكن الأمر الذي ضاعف المصاب وكبد الإخوة مزيداً من الخسائر كان حقيقة الأمر في قيام نشرة "النذير" الناطقة باسم تنظيم الإخوان بالمسارعة إلى نشر موضوع عن حياة الشهيد سالم الحامد ، ربما سعياً لاستثمار اسم الشيخ محمد الحامد في تحريك الناس ، أو لتحقيق مزيد من الالتفاف حول مجموعات الإخوان وقياداتهم التي نزلت الميدان من قريب . ومضت "النذير" تتحدث عن أبي الفرج الذي قاوم السلطة ساعات عديدة في بيته بدمشق قبل أن يلقى ربه ،

ورسمت له قصة بطولية لا أساس لها من الصحة ! وسادت هذه القناعة بين الإخوة في دمشق وباقي المحافظات ، وظن الناس أنهم في مأمن من اعترافات سالم . وعاد كل منا لمتابعة مهمته بلا أدنى قدر من حذر . وكذلك كان الحال معي ، وانتقلت صلتي من ثم إلى أخ آخر اسمه يحيى عبد الكريم الشامي ، وكان طالباً من مدينة حماة يدرس الصيدلة في جامعة دمشق .

الفصل الأول

الاعتقال

اعتقل سالم يوم 1980/8/23 وشاع نبأ مقتله واطمأن أفراد التنظيم وقيادتهم . لكنني وفي بدايات شهر 1980/10 وفي لقاء لي مع مسؤولي الجديد يحيى فاجأني بأن سالم لم يستشهد واقع الأمر وإنما اعتقل . فلما سألته عن مصدر هذه المعلومة غير المتوقعة قال لي إن عبد المعز شقيق سالم استدعي إلى فرع المخابرات بالعدوي وكان وقتها مجنداً بالخدمة الإلزامية وتم التحقيق معه ثم أفرج عنه . وأنه أحس خلال تلك الفترة بوجود أخاه سالم هناك على قيد الحياة ونقل له ذلك . ورغم أن يحيى طلب مني أن آخذ حذري واحتياطاتي إلا أنني لم أفعل ذلك ، وكأنني بعد أن تكرست في ذهني قصة الشهيد ورواية المقاومة التي نسجتها "النذير" لم أقتنع بما قال ، وأكملت مهمتي وحياتي بشكل عادي ونسيت الموضوع !

وفي يوم الخميس الموافق للثامن من الشهر نفسه ذهبت عند الظهيرة إلى كلية الهندسة لحضور إحدى المحاضرات كالمعتاد . ولم تفاجئني في البداية مظاهر الحراسة المشددة وانتشار المسلحين على الأبواب لأن هذا الإجراء بات اعتيادياً هناك منذ شهور . لكن ما أن توقفت وقدمت بطاقتي لمسؤول الأمن حتى التف حولي عدد من المسلحين قاطعين علي أي تفكير بالهرب . وخلال دقائق لم أتمكن فيها من التقاط أنفاسي كانوا قد غطوا عينيّ وأوثقوا يديّ ودفعوني إلى سيارة انطلقت بي كالزوبعة لتقذفني في مكان لا أعرفه ، تبين لي بعدها أنه فرع قيادة مخابرات منطقة العدوي الذي يرأسه العقيد نزار الحلو .

وجهاً لوجه !

استقبلتني من فوري اللكمات والركلات من كل جهة وأنا في طريقي إلى قبو المبنى . وهناك ومع الإجراءات نفسها فتشوني وأخذوا في غرفة الأمانات كل ما كان في جيوبي علاوة على الساعة والحزام ، ومنحوني رقم "13" ليكون اسمي الجديد من الآن فصاعداً .

ودفعوني وأنا لا أزال مطمش العينين مكلبش اليدين إلى مهجع جماعي استطعت أن ألمح فيه العديد من المساجين على مثل حالتي ، والسجان يجلد ظهورهم بكبل في يده . ولم تمض علي دقائق حتى جذبتني الأيدي وأصعدتني مع الركلات والصفعات الدَرَجَ ثانية وأوقفتني فجأة ونزعت الغطاء عن عيني ، لأجد سالم الحامد واقفاً أمامي وقد طالت لحيته وشعره لا ينبس بشفة . ومن غير مقدمات أتاه السؤال :

أهذا هو ؟

قال : نعم .

وفُتح الباب فدلف صالح الخوجة الطبيب الدمشقي الذي كان أحد من أوصلت لهم الرسائل مرة . فسألوه السؤال نفسه ، فأجاب بما أجاب سالم ، وغاب الرجلان عن عيني بعد ذاك .

في الزنزانة

أسقط في يدي ، وأذهلتني المفاجأة بحق ، ومن غير أن يمسني أحد هذه المرة اقتادني عنصر إلى القبو كما أحضرني . وفي الزنزانة الموحشة حيث ألقاني هجمت علي التساؤلات والمخاوف والهواجس دفعة واحدة بلا رحمة : أمي وأبي .. أهلي .. ماذا يفعلون الآن ؟ كيف تراهم يتعذبون من أجلي ؟ يا للمساكين .. سيحاولون البحث عني والتوسط لي بلا شك .. ولن يجدوا إلا الفشل وخيبة الأمل ! لقد انتهيت هذه المرة .. والاعتراف الآن علي متحقق ودامغ . وماذا عن أولاء الذين لا يزالون على صلة معي في سورية ؟ هل تراهم انكشفوا ، أم أنني سأضطر لكشفهم بعد حين ؟ وماذا عن التعذيب الذي ينتظرني ؟ ماذا عن قصص الرعب التي سمعت الكثير عنها ورأيت ملامح بعضها في الأيام القليلة التي أوقفوني فيها المرة الماضية على الحدود ؟ هل انتهى كل شيء حقاً .. هل هي إلا مجرد أيام معدودة ثم تنتزع مني المعلومات وأنال المصير الذي ناله شهداء تدمر قبل أقل من عام !

إلى التحقيق

مضى الوقت علي كالطوفان أغرقني وأرعبني ، ولم تلبث الزنزانة أن فتحت من جديد ونادى المنادي :

13 ولا .. هيا .

وساقتني الأيدي القاسية ثانية إلى الأعلى . وعلى باب غرفة التحقيق وجدت الشخص الذي أحضرني ينزع عني ملابسي كلها ويقذف بي من ثم إلى داخل الغرفة مغمض العينين مكبل اليدين عارياً كيوم ولدتني أمي ! ولم يلبث الصوت نفسه أن أمرني بالجثو على الأرض وخفض الرأس ، وحذرني أن أحاول رفع هامتي لأي سبب .

منذ متى وأنت تعرف أبا الفرج ولا ؟

جاءني السؤال هكذا بلا أي مقدمات . أحسست أن شخصاً آخر يطل علي من وراء مكتب في مواجهتي هو الذي طرح السؤال .

من زمن .

قلتها وأنا لا أعرف بعد كيف أخاطب هؤلاء الناس أو أرد عليهم . فالجو المرعب منذ اللحظات الأولى يلغي لدى المرء القدرة على التركيز أو التمييز .

وماذا عن الدكتور صالح خوجة ؟

قلت : أعرفه كذلك من زمن .

كان الدكتور صالح على علاقة مع سالم بالفعل ، وحدث أن قمت بإحضار رسائل إليه من القيادة في الأردن إلى عيادته بحي ركن الدين ، فلما اعتقل سالم كان الدكتور صالح أحد الذين اعترف عليهم كما يبدو ، وكان قد أقر أنه يعرفني كما مر ، ولذلك فلم تعد هناك جدوى من الإنكار .

طيب محمد .. قل لنا الآن لماذا أنت تعرف هذين الشخصين ؟

كانت اللهجة إلى الآن هادئة ، والحديث يدور بشكل عادي في ظاهره ، لكن ذلك كان يزيد من شعوري بالقلق من الآتي وترقب المجهول .

قلت : كان هناك شخص طلب مني أن أوصل لهما رسائل ففعلت .

وما هي هذه الرسائل ؟

لا أعرف . هذا الشخص كان سائقاً على الخط بين عمان ودمشق ، وكان يعمل معي معروفاً فيأتي لي بأغراض من أهلي ، ويأخذ أغراضي إليهم بعض الأحيان . وكان بين هذه المرات يطلب مني أن أوصل رسائل أو نقوداً لهذين الشخصين فكنت أرد له الجميل وأفعل .

كان مازن يوم اعتقالي مسافراً في الأردن ولله الحمد ، وتأكد لي أنه لن يعود بعدها . وكنا واقع الأمر قد اتفقنا على سرد مثل هذه الرواية إذا وقعنا بأيدي المخابرات . ولذلك بدت لي إجابتي منطقية ومترابطة . لكن الرجل تابع يسأل :

ألم تكن تعلم بمحتويات الرسائل ؟

قلت : لا .

قال : في اليوم الفلاني أنت ذهبت إلى الدكتور صالح وأعطيته مغلفاً فيه مجلة النذير ورسائل أخرى من الأردن ، وقلت له أن يأتي على موعد مع الشيخ سعيد حوى إلى عمان . ألا تذكر ذلك ؟

صحيح . أنا أوصلت إليه مغلفاً يومها لكنه كان مغلقاً ، وهو موجود عندكم ويمكنك أن تسأله . وأما مجلة النذير هذه فلا أدري ما هي . وأما بالنسبة للموعد فمازن قال لي أن أخبر الدكتور صالح بأن جماعتك ينتظرونك في الأردن بالتاريخ الفلاني ففعلت ، ولم أكن أعرف أن في الأمر تنظيماً أو ممنوعات

حفل التعذيب

لم يشأ الرجل القابع وراء المكتب أن يسمع مني المزيد كما يبدو ، وأدرك كما فهمت لاحقاً أن الأمر لم ينضج بعد . ولم ألبث أن سمعته يقول للعنصر الذي أحضرني من غير أن يدعني أنهي كلامي :

خذه هال.... اعمل كذا وكذا بأخته خليه يقر .

وسرعان ما انتزعني ذاك من مكاني وساقني في الممر الذي جئت منه إلى غرفة مجاورة ، وأنا لا أزال على حالتي عارياً مقيداً مغطى العينين . ووجدت أيدياً قاسية تتناولني من جديد فترفع القيد عن يدي من الخلف ، وتجذبهما للأمام وتعيد تقييدهما ، ثم تعود الأيدي التي تمتد من كل اتجاه فترفعني من وسطي عن الأرض ، وتتولى أيد أخرى جذب ساعديّ للأعلى . وفي لحظة واحدة أفلتني الجميع ، فوجدتني مشبوحاً كالذبيحة تماماً إلى السقف ، ورجلاي تخبطان في الهواء ليس تحتهما شيء .. وبدأت أولى حفلات التعذيب !

كنت أيامها في مقتبل الشباب ، وكانت عافيتي بحمد الله وافرة ، حتى أن أحدهم ناداني مع ابتداء التعذيب ساخراً يقول :

ولا .. هِنْت (أي أنت) بتلعب حديد ؟

لكن عملية الشبح وحدها كانت كافية لتمزق أعصابي وتتلف جَلَدي ، وتفقدني الوعي بعد عشر دقائق . غير أن الأمر ما كان كذلك وحسب ، فسرعان ما انطلقت تتناوشني مجموعة من الكبلات والعصي تجلدني كأسياخ النار ، تبعتها من حيث لا أدري لسعات الكهرباء تتخير أكثر مناطق الحساسية في الجسد فتصعقها بلا رحمة : في الأنف مرة ، ومرة في الشفتين .. في العورة .. في العينين .. في شحمة الأذن .. في كل مكان تتجمع فيه مراكز الإحساس ومواطن الشعور بالألم !

انفجرت بالصياح من شدة الألم المتفجر فكأنما ازداد الجلادون انتشاء بذلك ! وازدادت حدة اللسعات والصعقات من غير أن يسألني أحد أي شيء !

كنت أسمع وسط دوامة الألم صياحهم وهياجهم كالكلاب المسعورة حولي ، ومن غير أن أبصر شيئاً أحسست أنهم ربما كانوا قرابة العشرة ، ومع كل ضربة كانت تطرق أذني شتيمة جديدة وألفاظ كفر بالله تزلزل السماوات والأرضين . ولم ألبث أن وجدتني وقد فاق الألم قدرتي على الاحتمال وحتى على الصياح أغيب عن الوعي تماماً، لأصحو لا أدري متى فأجدني في زنزانة منفردة ينهش الألم أطرافي وتشتعل الأوجاع نيراناً في كل ثنية من ثنيات بدني .

أرقام وحسب !

كانت الزنزانة أشبه ما تكون بقبر مقفل : الجدران متقاربة لا أستطيع أن أتمدد بينها ، والرهبة مطبقة ، وليس ثمة شيء تحتي إلا الإسمنت البارد ، والسقف شاهق فوقي تتوسطه شراقة للتهوية (نافذة متشابكة القضبان) يتسلل منها ضوء خافت يزيد المشهد كآبة ووحشة . وسرعان ما تدهم السكون صيحات استغاثة سجين آخر ينال العذاب في الطابق الأعلى ، وتخترق صرخاته الجدران الصم وأبواب الحديد ، فتنتفض من هولها كل ذرة في بدني وتستعر فيّ كل الجروح والكدمات .

ومضى الوقت بطيئاً ثقيل الوطء فكأنه الرحى تدور على جسدي المنهك ، لكنني سرعان ما فقدت معنى الزمن بعد هنيهة ، واختلطت علي معالم الليل والنهار . فلا ساعة معي تدلني على الوقت .. ولا صوت أحد أو همسة حي تنبي بما يجري .. والضوء الخافت لا يتغير ولا يتبدل . وعندما تذكرت الصلاة كانت وسيلتي الوحيدة لأدائها الإيماء . وعلى ذلك مضت السنون التالية علي ، لا أكاد أعرف الصلاة إلا بالإيماء وحسب !

وفتح الباب فجأة ، وتلقيت من غير مقدمات واحدة من أقذر المسبات قذفني السجان بها وهو يلقي إلي بنصف رغيف متيبس مرت عليه رائحة الحلاوة أو المربى في يوم من الأيام ! ولم ألبث أن اعتدت سماع مثل ما سمعت مع كل فتحة باب أو نداء للتحقيق أو خروج إلى الحمام . وكان خروجنا إلى الحمام مرة في اليوم يحددونها حسب أمزجتهم ، فيسوقون مجموعة من المساجين معصوبي العيون مكبلي الأيدي ، فإذا وقف واحدنا عند باب الحمام بعد أن مر على سيل من اللطمات واللكمات واللسعات فكوا يديه المكبلتين من الخلف ونقلوهما لتقيدا معاً من الأمام ! فلا يكاد يلج الحمام حتى تهوي الكبلات على الباب وتصله الشتائم والأوامر بالإسراع وبالانتهاء . وفي كل تقلبات هذه الأحوال نظل مجرد أرقام تنادى ، لا شخصية لنا ولا أسماء . ليتكرس إحساسنا بالهوان ، ونزداد اضطراباً وضياعاً .

معجزة !

كانت حفلة التعذيب كما تقرر لي مرتين في اليوم . أخرج إلى غرفة التعذيب مكبلاً مغمض العينين .. أجرد من ملابسي بالكامل وأعلّق مشبوحاً من يدي .. وتكر الأحداث بعد ذلك : تبدأ بالشبح أحياناً ، فتتسلط الكبلات والسياط في هذه الحالة أكثر ما تتسلط على الظهر والصدر والرأس ، وتعمل ملاقط الكهرباء عملها في الوقت نفسه . لكن أسوأ ما يصيب الضحية وهو في هذه الحالة أثر القيد الحديدي الذي يشد على الرسغ ويحتك مع العظم بلا رحمة أو توقف . حتى التهبت يداي وتورمتا من جراء انغراس الحديد القاسي في اللحم واحتكاكه المباشر بالعظم الذي انكشف وتعرى . وظلت آثار القيد كالوشم على رسغي إلى اليوم ! وطوال خمسة أشهر تالية بقيت لا أحس براحَتَي يدي البتة ولا أقدر أن أحمل بهما أي شيء وكأنهما أصيبتا بالتنميل أو الخَدَر المزمن . وحكى لي طبيب التقيته في تدمر لاحقاً أن الأوتار في تلك المنطقة قد تهتكت بشكل كبير ، وأنها تحتاج إلى معجزة لتعود إلى حالتها الطبيعية من جديد .

بساط الريح

أما الحالة الأخرى من التعذيب فكانت على "بساط الريح" . وهو لوح من الخشب يشدون المعتقل عليه من كل أطرافه بسيور جلدية ، ثم يرفعون نصفه الأسفل الذي ارتصت عليه الساقان ولم تعودا تملكان أي فرصة للتحرك . وتبدأ الكبلات ذات النصال المعدنية تهوي على بطن الرجلين تنهشهما بلا شفقة ، وتترك مع كل لسعة لها أجزاء من نصال الحديد في ثنيات الجروح المتفجرة ، فإذا انتهى الضرب بقيت هذه النصال مع الدم المتجمد والجروح المفتوحة فتلتهب وتتعفن ، فيتضاعف الألم وتشتد الأوجاع والمعاناة . وأما الشتائم والكفر بالله فلم تكن تتوقف مع كل أنواع التعذيب . ولم أكن أنجو من هذه الحفلات الدامية إلا عندما يغمى علي ، لأستيقظ وأنا في الزنزانة عاري البدن ممزق الأوصال مبللاً أرتجف من شدة البرد . ولا أكاد ألتقط أنفاسي وألملم بقايا جَلَدي حتى يحين موعد التعذيب مرة أخرى ، وتعود الكَبْلات تنهش لحمي من جديد ، وتنقض ملاقط الحديد على أماكن متفرقة بالغة الحساسية من جسدي لتصعقني بالكهرباء .

ولأنهم كانوا يعرفون أن العورة لدينا أمر كبير فقد كانوا يتعمدون إهانتنا بالعبث بسوآتنا بطرف الكبل والعصي أثناء التعذيب ، أو الإطباق بملاقط الكهرباء على المحاشم وإطلاق صعقات الكهرباء فيها ، وكان ذلك في الحقيقة من أشد أنواع العذاب علي ، ويبدو أن ذلك ما كنت أفقد وقتذاك الوعي بسببه وأغيب عن الوجود .

دموع التماسيح !

وفي مرة من المرات وبعد أن مضى علي في العذاب عدة أيام أخرجوني كالعادة وعروني وعلقوني ، فوجدتني من قبل أن يبدأ الضرب أحس وكأنني فقدت الهواء في رئتي وما عدت قادراً على جذب النَفَس . وكان يلازم في غرفة التعذيب تلك طبيب متخصص كما يبدو ، سرعان ما اقترب مني فجس نبضي وطلب منهم أن يُنزلوني ، ولم يلبث أن حقنني بإبرة جعلتني أفقد القدرة على النطق أو الحركة ، وأحس أنني أغادر هذا العالم وأموت بالفعل !

ووجدتني أغيب عن الوعي لأصحو بعد قليل فأراني في أحد الأسرّة . عن طرفي من هنا حارس برشاشه الكلاشينكوف ، ومن هناك يتدلى أنبوب بلاستيكي يتصل بكمامة على أنفي أتنشق من خلالها الأوكسجين . وبعد ساعة أو ساعتين استعدت خلالهما أكثر وعيي وجدتهم يقودونني عبر ممرات المستشفى الذي نقلت إليه إلى سيارة كانت تنتظرني لتقلني إلى الفرع من جديد . وهناك أعادوني إلى الزنزانة من غير عذاب . وبعد خمس أو ست ساعات استعدت خلالها وعيي أخرجوني إلى غرفة التعذيب من جديد ، وعوضوني عن التعذيب الذي فاتني عذاباً مثله كاملاً غير منقوص !

وفي مرة أخرى مماثلة وبعد أن كاد التعذيب يقتلني بحق حضر الطبيب ثانية إلى زنزانتي فنظف لي جروحي المتقيحة ، وقدم لي كأس حليب لأستمر على قيد الحياة ، وأجدد قدرتي على تلقي المزيد من التعذيب .. ومضى!

اعترافات

ومضى أسبوع كما قدرت على هذا النمط من العذاب ، وصعدت من جديد إلى التحقيق بنفس الكيفية : مكلبشاً ومطمشاً وعارياً من كل شيء وجلست غصباً عني جلسة الخضوع . وأتاني الصوت من جديد يقول :

اسمع ولا .. نحن لدينا كل المعلومات عنك . ونعرفك من أول يوم أتيت فيه إلى هنا وكل مهمات القتل التي أحضرتها لهؤلاء المجرمين .. وكل واحد انقتل هو برقبتك . والآن قل لنا مع من كنت تتصل .

كانت اللهجة العلوية للمتحدث وللأشخاص الذين حوله هي الشيء الوحيد الذي استطعت تمييزه حولي ، وكان الاعتراف على مسؤولي الجديد وخيوط الاتصال التي نَمَتْ بعد اعتقال سالم هي الأهداف التي يريدونني أن أصل بهم إليها بأسرع وقت . وعدا ذلك فالإرهاب والمجاهيل كانت تلفني من كل مكان . وعلى الرغم من هول موقفي إلا أنني استطعت أن التقط وسط هذه الدوامة

المرعبة صوت امرأة يأتي من غرفة تحقيق أخرى كما يبدو وهي في موضع المساءلة والاتهام ، فزادني الأمر توتراً وتشتتاً ، لكنني استجمعت ما استطعت جَلَدي وقتها وقلت :

أنا لا أعرف أحداً إلا مازن . هو الذي كان يعطيني الرسائل ويطلب مني أن أوصلها لأبي الفرج .

قال : ألم يكن هناك إلا أبو الفرج ولا ؟

قلت وقلبي يكاد من طرقاته ينخلع من صدري خشية أن يكون سالم قد اعترف علي بالمزيد : أنا لا أعرف إلا أبا الفرج .

قال : والدكتور صالح ولا .. ماذا كان رده عندما أبلغته الرسالة ؟

قلت : استقبلني .. وضيفني فنجان قهوة ومضيت .

قال : وعندما ذهب إلى الأردن .. هل التقيته هناك ؟

قلت بإصرار:لب في الجامعة هنا فكيف أذهب وألتقيه هناك !

وأتاني صوت سائل آخر : ألم تدخل سلاحاً ولا ؟

قلت بإصرار : أبداً .

قال : ولا أموال ؟

قلت : ولا قرش .

قال : طيب انقلع الآن .

ونزلت إلى الزنزانة ليلتها من غير أن يضربوني . ومضى يوم آخر من غير تعذيب أو تحقيق ، استدعوني بعدها وكانت الساعة بتقديري قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل .

مائدة اللئام

دخلت غرفة التحقيق مكلبشاً مكبلاً ومعرى ككل مرة ، وسرعان ما شممت رائحة خمر وطعام تملأ المكان . وسألني أحدهم :

هل أنت جائع ؟ إذا أردت أن تأكل فتعال .

قلت وأنا لا أدري أهي دعابة منه أم محض سخرية :

لست جائعاً !

ومضى الجمع في تناول الطعام واحتساء الخمر وتبادل الحديث البذيء وأنا بين أيديهم جاثياً معرى تصلني أصوات المضغ وكركعة الشراب لا حول لي ولا قوة . لكنني تمكنت هذه المرة من أن أختطف نظرة على المكان ومن فيه من تحت تلك الطماشة التي انزاحت كما يبدو عن عيني برهة . وعلى الرغم من حالة الخوف التي تتملك السجين .. وبرغم الجو الإرهابي الذي أحاطني على مدار الأيام الخالية استطعت أن أحس من خلال تلك اللمحة العجلى ظلال الخوف والتوتر ترتسم على معالم الضباط المحققين . أحسستها من محاولاتهم الجاهدة إخفاء وجوههم وشخصياتهم عني وأنا المكبل الأسير وهم المتمكنون الطلقاء . ومن همهماتهم بعض الأحيان وإشاراتهم وتغامزهم مع بعضهم البعض . وأحسستها من ذلك السرير بطرف الغرفة الذي لا بد أنهم إذا أنهكتهم التحقيقات ناموا فيه من غير أن يجرؤوا في تلك الفترة على مغادرة الفرع خوفاً من أن تطالهم رصاصة واحد من المجاهدين .

لكن حالة الانتشاء تلك لم تطل بي . ولم يلبث أن أتاني السؤال :

محمد ولا . هل تعرف أحداً من الإخوان الهاربين في الأردن ؟

قلت : لا .. لا أعرف أي أحد .

قال : أين تسكن هناك ؟

قلت : في الزرقاء . في العنوان الفلاني بشارع الفاروق .

فوجدت السائل يبادرني ويقول : بالقرب من المركز الإسلامي إذاً .

قلت وقد فاجأتني معرفته للمدينة وشوارعها بهذا التفصيل : نعم !

قال : ألم تر أياً منهم هناك ؟

أجبت : أنا لا أذهب إلى المركز .

قال : ألا تصلي ؟

قلت : نعم ، ولكن في المسجد .

قال : وهناك في المسجد ألم تر ناساً سوريين ؟

قلت : ربما ، لكنني لا أعرف اسم أي منهم .

وتبدل الحال هذه المرة ، وصاح المحقق بالعنصر ليأخذني إلى التعذيب ، وعادت الكبلات تهوي على بدني المنهك بلا رحمة ، ومزقتني صعقات الكهرباء من جديد ، وغبت ككل مرة عن الوعي آخر الأمر ، ووجدتني في الزنزانة حينما صحوت ملابسي مكومة بجانبي والدم يسيل من كل مكان كان قد اندملت الجروح فيه ، وسرعان ما أتى العنصر فساقني في الليلة نفسها إلى التحقيق ، ووجدت سالم معي في نفس المكان ، والمحقق يسألني من غير مقدمات :

متى التقيت بسالم أول مرة ولا ؟

قلت : في شهر شباط 1980 .

قال : أين ؟

قلت : أظن أنه أتى مع مازن إلى بيتي .

ولم أكد أتفوه بذلك حتى أتتني ركلة من وراء ظهري أحسست أن عيني خرجتا معها من محجريهما ، وناداني أحدهم بتشفي :

زارك بالدار أم التقيته عند مسجد خالد ولا ؟

قلت : والله ما عدت أذكر .

قال موجهاً حديثة لسالم : ما رأيك يا أبو الفرج ؟

أجاب سالم : صحيح سيدي .. التقينا عند مسجد خالد وصلينا المغرب هناك .. وكان ذلك بداية تعرفنا عليه .

قال المحقق موجهاً الحديث لي من جديد : وإذا كنت زلمة بتعمل خير ولا .. ليش لتلتقوا بالجامع وأنت تعرف أن هناك مخربين وعصابة مجرمين في البلد ؟

قلت : أنا ذهبت بطبيعة الحال مع مازن لنصلي ، وهناك التقينا مع أبي الفرج .

قال ولهجة التهديد المرعب ناطقة على نبرته هذه المرة : اسمع ولا .. إما أن تحكي الصحيح أو تنتهي .. فهمت ؟

أحسست أن الأمر بلغ حده ، وأن اعترافات سالم والمعلومات التي توفرت لهم لن تعفيني من الإصرار على الإنكار ، وأنه صار علي الآن أن أقدم لهم شيئاً ما يدفع عني شرهم .. فقلت :

الحقيقة أنا ليست لي علاقة بالموضوع من قريب ولا بعيد في البداية ، لكنني عرفت في الأخير أن هؤلاء من الإخوان وأنهم يقومون بشيء ما .. ولكن أنا ليست لي أي علاقة .

ومن غير أن أسمع تعليقاً على هذا الكلام أشار كأنما إلى الجلاد فجذبني بعنف ، ورماني في غرفة التعذيب المجاورة وأطلق عصيه وأدوات التعذيب علي ، لكنني نزلت هذه المرة إلى الزنزانة صاحياً ولم يغم علي ، وبعد قرابة الساعتين عادوا فاستدعوني إلى المحقق الذي ابتدرني بلهجة حازمة يقول :

اسمع ولا .. هلق بدك تحكي لنا من طق طق لسلام عليكم .. احك كل شيء تعرفه من ساعة ما طلعت من ... أمك ! .

صراع مع النفس

كانت رهيبة تلك اللحظات بشكل لا يتصوره أحد . أجثو بين أيدي هؤلاء الظلمة كشاة لا حول لها ولا قوة .. مكشوف العورة مفضوح الأسرار . وجسدي كله لعبة بأيديهم يلهون به ويَعْدون عليه بلا رحمة . ومن غرفة التعذيب المجاورة يصلني صوت أخ آخر يستغيث ويصيح .. وهتاف مرٌّ بداخلي يقول لي : تكلم وإلا فالدور عليك ، والصراخ سيخرج للتو من جوفك أنت ! ولا تلبث أنفاس الرحمة أن تنساب في روحي وتهمس بي أن الاعتراف لن يعفيك أيضاً ، فإدانة نفسك تعني المزيد من التعذيب لتعترف بالمزيد من الأسرار ، والمصير في النهاية هو الإعدام المحقق ، مثلما تعني أن إخوة آخرين سيأتون هنا ليلاقوا كل هذا الذي لاقيت وربما أكثر .. وستكر السلسلة ويزداد الضحايا من غير أن ينجو منكم أحد .

دارت هذه الخواطر كلها في خاطري كلمحة برق ، وبدأت أسرد على المحققين الرواية ذاتها موحياً إليهم أنني انهرت وهذا كل ما لدي . وعلمت فيما بعد أنهم كانوا قد استدعوا سالم والدكتور صالح وسألوهما إن كنت أعرف عن محتوى الرسائل شيئاً فنفى الاثنان . وساعدني ذلك كثيراً ولله الحمد .

غير أن الأمر لم ينته ، وتعطشهم لمزيد من الأسماء ومزيد من الضحايا جعلهم يعيدونني إلى غرفة التعذيب ، وأسلموني ثلاثة أيام متواليات إلى الجلادين من غير سؤال أو استفسار . ثم كانت جلسة التحقيق الأخير ، وحاولوا للمرة الأخيرة أن يعتصروا كل معلومة أو اسم ربما لا أزال أحتفظ به ، وألحوا على أسماء المراسلين بالتحديد ، فثبتني الله ولم أذكر اسم أي إنسان بفضل الله ، وأصررت على أن صلتي الوحيدة كانت مع سالم إضافة إلى لقائي بالدكتور صالح

تلك المرة . فأرسلوني من جديد إلى غرفة التعذيب ، لأجد من الأهوال ما أنساني كل الذي لاقيت من قبل هناك !

وانقضت ربما خمس أو ست ساعات علي هذه المرة يتعاقب علي الجلادون وأدوات التعذيب بشكل وقاكم الله شره . وعندما صحوت على نفسي في الزنزانة وجدتني على حافة الهلاك بالفعل . لا أتحسس موضعاً في بدني إلا وجدته مدمى أو مصاباً يشتعل من الألم كما تشتعل في الرماد النار !

مسيرة الأرقام !

وحضر السجان من جديد ونادى من وراء الأبواب على مجموعة من الأرقام ليجهزوا أنفسهم .. وأتاني الصوت البغيض :

13 ولا جهز حالك .

وفيما أخذت الأقفال تصطك بالمفاتيح وترتطم المزاليج الثقيلة بزوايا الحديد التي تحوط مجاريها على الأبواب الصلدة ، وبدأ تدافع الأقدام المدماة تتكئ عليها الأجساد المنهكة يسوقونها مع الصفعات واللكمات ولسعات الكبل إلى المجهول ، انتصبتُ مكاني لأنفذ الأمر ، وجذبت بنطالي المتراخي لأستعد ، فهالني أنه اتسع علي فكأنه أكبر من قياسي بعشر درجات ، وأدركت للمرة الأولى أنني فقدت بين عشرة وخمسة عشر كيلو غراماً من وزني خلال هذه الأيام . ولم أكد أكتشف ذلك حتى فتح الباب وجذبني أحدهم بقسوة ، ودخلت ضمن مسيرة الأرقام المتحركة تسوقها اللطمات والركلات والكرابيج .

وكأنما أحس الجلادون أن اللقاء لن يتكرر ، ولذة الاستمتاع بتعذيب هذه المجموعة ها هي ستنقضي ، فبادروا بالجهد لتعويض الشوق إلى سماع استغاثاتنا وصراخنا ، ثم أركبونا وقد شارفنا على الهلاك سيارة مغلقة ، ونحن قرابة العشرين شخصاً مكبلي الأيدي معصوبي العيون . حتى إذا بدأت بالتحرك سرت التكهنات في سرائرنا وعلى أطراف شفاهنا : هل هي النهاية ؟ ألى تدمر الآن ؟ أم ربما إلى سجن القلعة ؟ ولم يكن لنا من حيلة إلا الانتظار . وسرعان ما وجدنا أنفسنا تتوقف بنا السيارة من جديد ، ويأتينا الأمر الفظ مع سيل من الشتائم والمسبات بالنزول . ولم تلبث الأيدي القاسية والأرجل والكرابيج أن استقبلتنا بمثل ما ودعونا به هناك ، وساقتنا آخر الأمر نزولاً إلى قبو آخر عميق جداً ، لم نلبث أن عرفنا بعد هنيهة أنه قبو فرع مخابرات التحقيق العسكري .

النوم بالتناوب !

أغلق علي باب المكان الذي دخلته وأنا لا أزال مطمش العينين ، لكن يداي كانتا مطلقتين . ولم ألبث أن سمعت همهمة تتزايد حولي ، وأحسست حركة من جهات شتى . وكأنما أتاني نداء خافت بأن أرفع الغطاء عن عيني الآن .. فاستجبت ببطء .. وبحذر . حتى إذا فعلت وكانت المرة الأولى التي أفتح فيها عيني بلا طماشة منذ اعتقالي ، وجدتني وسط مهجع محتشد بالنزلاء ، يكاد عدد السجناء فيه يصل المائة ، في مساحة لا تزيد عن حجم غرفة عادية ! ولم ألبث أن أومأت لمن حولي .. وسلمت ، فتشاغل البعض وأشاح البعض .. ورد الآخرون بصوت منخفض .

وسرعان ما لمحت سالم بين الناس فاقتربت منه بالتدريج. فلما حاولت أن أكلمه همس لي وقال :

لا تقترب مني كثيراً فربما كان هناك مخبرون بيننا !

لكن الحذر بدأ مع مضي الوقت يخف بالتدريج ، وبدأت أتعرف على الشباب ويتعرفون علي ، لنبدأ معاً مرحلة جديدة من هذه المحنة حافلة بالفواجع والأحداث .

كانت ظروف المهجع في غاية السوء . فمع هذا العدد غير المعقول من الناس لم يكن ثمة مكان لقادم جديد . وكنا إذا أردنا النوم تناوبنا على المكان فينام البعض ويظل الآخرون وقوفاً ينتظرون ! وكانت الأنفاس تختلط بنتانة العرق ، وتجتمع معها روائح جراحاتنا المتعفنة في هذا الجو السيئ . ولأن المهجع كان يحتوي على حمام بداخله ، فلم يكن هناك أي فرصة لمغادرته أبداً .

وبقيت على هذه الحال ثلاثة أسابيع تقريباً ، كان الباب يفتح خلالها لإدخال الطعام فقط ، والذي لم يكن يكفي ليقيتنا الكفاف . فنصيب الواحد منا صمونتان عسكريتان جافتان في اليوم ، تصحبهما بضع حبات زيتون أو شيء من اللبنة أو الحلاوة في الصباح . وعلى الغداء يصلنا بعض الرز أو البرغل مصحوباً بمرقة حمراء . وفي المساء وعلى وجبة العشاء ننال نتفاً من البيض المسلوق أو البطاطس أو حب الحمص المسلوق . صنفاً واحداً فقط ، ومقدار دريهمات منه وحسب !

القمل والجرذان !

ولقد كان من المضحكات المبكيات أننا ونحن في هذه الحالة من الجوع والضيق والمعاناة كان قضاء محتماً علينا أن نشارك الطعام والمقام ضيوفاً من مخلوقات أخرى تؤمن أن كرم الضيافة حق مباح بلا حدود !

كانت الجرذان ، والتي أقسم أن واحدها كان أكبر من القط بلا مبالغة ، تربت على طعام المساجين الذي يحتجزه السجانون عنا ثم يرمونه في القمامة ! هذه الجرذان كانت تتنقل بين المهاجع من خلال قنوات التهوية رائحة غادية ، وأثناء عبورها فوق فتحة المروحة التي كانت أعجز من أن تقدم شيئاً لهذا الجو الموبوء ، كان بعضها يزلق فيسقط بيننا أو علينا ، فيصاب المهجع كله بهستيريا الذعر ، ويتراكض الناس يميناً وشمالاً يريدون أن ينجوا من عضة هذا المخلوق المرعب . ويتدافع الخلق .. ويعلو الصياح .. ولا تنتهي الغارة ويموت الجرذ تحت الأقدام إلا وقد نهش أرجل أربعة أو خمسة منا .

ومع احتشاد المهجع وتزاحم المعتقلين ، وبسبب بعض السجناء القادمين من مواطن موبوءة أو غير نظيفة بالأصل، بدأت تتفشى فينا أعرض مرض السل ، وانتشر فيما بيننا القمل . وإذا كان البلاء الأول قد أصاب بعضنا وقتذاك ولم يأخذ صفة الوباء ، فإن القمل لم يوفر أحداً من بيننا أبداً ، وانتشر في رؤوسنا وملابسنا وأمتعتنا حتى لم يعد من سبيل لتفاديه . وكنت أنا أكثر الناس الذين قملوا . وكان منظراً اعتيادياً ونشاطاً مشتركاً لسكان المهجع كل يوم أن نخلع ملابسنا ونتابع القمل فيها فنفقأه بأصابعنا كإجراء وحيد متاح للحد أو التخفيف من انتشاره !

إلى الحلاق

وذات يوم ، وبعد أن مضت أسابيع كثيرة على اعتقالنا فطالت شعورنا ولحانا حتى بدونا كالغيلان ، صدر الأمر لنا بالذهاب إلى الحلاق . ومضى الطابور بنا إلى غرفة قريبة يتوسطها كرسي وسجان بمهنة حلاق كان يتناول رؤوسنا كالماعز ويمر بآلة الحلاقة عليها حتى نخرج من بين يديه بالقرعة كرأس البطيخ ! ولم يكن هذا الشخص يوفر الفرصة ليمتع نفسه بشتمنا ولطمنا بين حين وآخر ، وكان واضحاً من لهجته أنه من طائفة النظام .

ولقد كان من المضحكات المبكيات أننا وبعد هذه المهزلة أمرونا أن ندفع للرجل خمس ليرات أجرة حلاقة الرأس الواحد . تولاها الإخوة الذين كانت معهم في أماناتهم بعض النقود ، أو الذين وصلتهم مع طول مدة اعتقالهم زيارات بالواسطة . وبعد ذلك جاء وقت الحمام الجماعي ، وساقتنا اللطمات والركلات وفرقعة الكرابيج على ظهورنا إلى قاعة مفتوحة أدخلوا كل عشرة فيها دفعة واحدة وأمروهم أن يتعروا من ثيابهم ويغتسلوا معاً . والجلادون على الباب يشتمون من شاؤوا ويضربون من اشتهوا ، والجرذان العملاقة تلك على المواسير فوقنا تترقب أن يغفل أحدنا لتنهش منه أو تنقض عليه !

واعتدت حياة المهجع نوعاً ما ، وألفت الإخوة وألفوني . وتعرفت على العديد منهم من محافظات شتى ، أذكر منهم الإخوة حسين رشيد عثمان ، وابن عمه أيمن عثمان من مدينة الباب

قرب حلب . وطاهر جيلو من إدلب . وجمال عقيل وجلال الدين جلال من حلب . ومحمد أرمنازي وجهاد كلاس الحلبي و..... جعمور و..... نجار وأسامة فتوحي الجندي من حماة . وتيسير أبو الرز وجهاد حلاق ومأمون العظمة و .... الصفدي وعبد الإله بعلبكي من دمشق وضواحيها . إضافة إلى سالم الحامد والدكتور صالح خوجة . ولقد تم إعدام أكثر هؤلاء الإخوة فيما بعد . وشهدت إعدام بعضهم بنفسي ، وسمعت عن الآخرين من شهود عيان .

إلهي أغثني

ولم يكن هناك في تلك المرحلة تعذيب أو تحقيق بفضل الله ، أو أنه كان لا يذكر قياساً بما سبق في فرع المخابرات . فوجدناها فرصة لا تثمن لنسمع قصص بعضنا البعض ، ومشاهدات وخبرات كل منا ، وأنعم الله علينا فنظمنا برنامجاً للصلوات والأذكار والدروس وحفظ القرآن ، ووقتها أتيح لي أن أسمع الكثير من سالم ومن غيره ، مثلما كانت بداية إقبالي على حفظ كتاب الله ، فكنت ألازم أخاً حافظاً لكتاب الله من حماة اسمه محمد صادق العون فأحفظ عنه ما تيسّر من سورة البقرة حتى جاوزت نصفها .

واستطعنا وقتها وللمرة الأولى منذ اعتقالي وللمرة الأخيرة ربما أن نصلي جماعة ، ورغم أن الحارس كان إذا فتح الشراقة ورآنا نصلي أخرج مجموعة منا وضربهم بلا رحمة ، إلا أننا كنا نعاود فعل ذلك ولله الحمد . ففي تلك الرحلة كانت معنوياتنا لا تزال عالية ، وثقتنا بالفرج وبالنصر كبيرة ، وكنا لا نزال نؤمل أن يأتي المجاهدون بين ساعة وأخرى فيقتحموا السجن علينا ويحررونا !

وأما سالم ، وبعد أن هدأت النفوس وأمِنّا المكان جلس وحدثني ، وروى لي كيف كان اعتقاله وكيف مضى التحقيق معه . وأكد لي أنه حاول أن يصرف عني ما استطاع ، واستسمح مني واعتذر إلي . وكان سالم حقيقة الأمر غير الشخص الذي عرفته من قبل ، فهو شخص بالغ التهذيب رقيق المشاعر بطبعه ، أصلح ما يكون مربياً . لكن قرار رميه في معترك هذه المعمعة لم يكن ليناسب مؤهلاته وشخصيته ، ولذلك كان دائم السهاد شديد الأسى ، يرقب هؤلاء الذين احتشد بهم المهجع بسبب اعترافاته ، ويرى أنه إلى الإعدام مصيرهم ، فلا يملك إلا أن يسكب الدموع وهو يدعو الله تعالى أن يخلصه . ولَكَمْ سمعته ينشد بحرقة ويقول : إلهي أغثني زماني عصيب !

اعترافات سالم

ولقد كان وضع سالم عصيباً بالفعل ، يلازمه هاجس أولئك الذين ينتظرون الإعدام ممن أتوا بسبب اعترافاته ، ويؤرقه آخرون قتلوا لنفس السبب . كان الأخ غالب آلوسي مسؤول دمشق وقتها من أبرزهم .

ولقد جرى كشف غالب حينما تم اعتقال مراسل إدلب طاهر عارف جيلو باعتراف من سالم أيضاً . فجرى تعذيبه ليعترف على موعده مع غالب ، فلما اشتد عليه العذاب ولم يكن بين اعتقاله والموعد إلا يومين أو ثلاثة أعطاهم مواعيد كاذبة ليشغلهم بها عنه . لكنهم كانوا إذا ذهبوا ولم يحضر أحد واكتشفوا الخديعة عادوا لينهالوا عليه بالضرب والتعذيب حتى كادوا يقتلونه .

وكان رحمه الله مصاباً بالقرحة وقتذاك ، إلا أن الله ثبته برغم ذلك كله ولم يعترف . ويبدو أنهم سألوا سالم عن الموعد فأخبرهم ، فأخذوا سالم وطاهر معاً وكمنوا له في المكان عند جامع المنصور . وعندما حضر غالب وتأكدوا أنه الشخص نفسه حاولوا اعتقاله ، لكنه اشتبك معهم - كما حدثني طاهر بنفسه - وأصاب أحد ضباط المخابرات بعينه قبل أن يقتل رحمه الله .

شَرَك جديد

ورغم أن سجل اعترافات سالم امتلأ إلى حافته سواء بما أدلى به تحت التعذيب أو ما توصلت المخابرات إليه عن طريق اكتشاف الهويات المزورة والمفاتيح الأخرى ، إلا أنهم كأنما أحسوا أن سالم لا يزال يخفي شيئاً . وكان هذا متوقعاً لاهتمام سالم - كما ذكرت - بتولي كل المسؤوليات بنفسه ومقابلة كل المراسلين شخصياً بأمر من القيادة في عمان . ولذلك رسموا له في فرع المخابرات بالعدوي شركاً جديداً أوقعوه فيه ، وأوقعوا معه مجموعة جديدة من الضحايا .

وكانت الحيلة حينما أمروا سجاناً من المنطقة الشرقية اسمه وائل أن يتودد إلى سالم ويتقرب منه بذكاء وحنكة . فأخذ ذاك يزيد له في الطعام يوماً ، أو يحضر إليه كوب حليب في خفاء مُدَّعَى . ومع الملاطفة في الكلام والرقة في التصرفات نمت العلاقة بينهما وتمت الخطوة الأولى . وفي يوم من الأيام جاء وائل هذا إلى سالم وقال له : أنا في الحقيقة واحد منكم .. ولست في هذا المكان إلا لأنني مجند في الخدمة الإلزامية . وأرى أنه لا بد وأن نستفيد من الفرصة ونحرركم مثلما حصل في كفر سوسة .

ومن المعلوم أن مجنداً آخر في سجن كفر سوسة كان سبق له وأن تعاون مع الإخوة السجناء هناك وتمكن في أيار من العام السابق 1980من مساعدة سبعة عشر منهم على الهرب في حادثة غير مسبوقة . فلما بلغ سالم الطعم وسأل وائل عن الكيفية طلب ذاك منه أن يؤمن له صلة بمجموعات مسلحة خارج السجن ليساعدونه ، فأعطاه سالم الأسماء . وفي ليلة واحدة تم اعتقال قرابة اثني عشر شخصاً لم يكونوا مكشوفين أبداً ، أذكر منهم عبد الكريم مهلهل من دير الزور الذي كان يدرس الطب في دمشق ، وآخر من بيت السراج من الدير أيضاً ، أظن اسمه الأول كان محمود . وتم للسلطة ما أرادت ، واطمأنوا إلى أن سالم أفرغ الآن ما في جعبته فنقلوه إلى فرع التحقيق العسكري ، لألتقيه مترعاً بالشجون والأسى هناك .

أحقاد الطائفيين

ومرت الأيام ، واستطعنا التعرف على بعض جلادينا وسجانينا . فرئيس الفرع هو العقيد مظهر فارس من الطائفة العلوية . وأما مدير السجن في هذا الفرع فضابط شركسي ينادونه أبا نزار مسلوب الإرادة كأكثر المسؤولين والضباط من غير طائفة النظام ، على العكس من نائبه المدعو أبو منهل ، والذي كان نصيرياً حاقداً . فكان يقتحم علينا المهجع من غير سبب إلا أن يدلق علينا سيلاً من الشتائم والكلمات القذرة التي طفحت بها حوصلته ويمضي ! ومن السجانين عرفنا واحداً اسمه أحمد سالم وآخر اسمه أحمد غانم من طائفة النظام أيضاً وفي منتهى القسوة والتجبر . وكان هناك رقيباً أول بنفس المواصفات اسمه مالك لا حد لأحقاده وقسوته . فكان لا يدع أحداً يعبر أمامه من السجناء إلا ضربه ، ولا يفوت فرصة لتعذيب الناس إلا اغتنمها . وحتى السجناء الذين كانوا يخرجون من بيننا لإدخال الطعام إلى المهجع كانوا ينالون من بطشه وظلمه بلا حساب .

الكرسي الألماني !

وفي تلك الفترة نمى إلى علمنا أن أخوات من النساء معتقلات في نفس الفرع معنا ، ولكننا لم نلتق أياً منهن . كذلك علمنا أن في السجن شيوعيين من جماعة رياض الترك وبعثيين يمينيين أيضاً ، غير أنهم كانوا قد فرزوا كل اتجاه مسبقاً ولم يتيحوا لنا فرصة للقاء .

ومن المشاهد المؤلمة التي لا أنساها عن تلك الفترة حالة الأخ حسين رشيد عثمان الذي عذبوه بالجلوس على "الكرسي الألماني" في فرع المخابرات بالعدوي حتى أصيب بما يقارب الشلل . والكرسي الألماني هذا عبارة عن كرسي ذو أجزاء متحركة يوثق السجين عليه من ذراعيه وساقيه ثم يسحبون مسنده الخلفي للوراء ساحباً بذلك جذعه الأعلى معه ، فيما تظل قدماه مثبتتان

مكانهما من الجهة الأخرى المضادة . فيتركز الضغط على صدره وعموده الفقري . فإذا ازداد تهتكت الفقرات حتى تتكسر . وعندما التقيت الأخ أبا رشيد كان وضعه في غاية السوء . فلم يكن يستطيع تحريك ظهره البتة ، ولم يكن يرتاح لذلك لا في يقظة ولا في منام ، ولا يستطيع لا أن يجلس ولا أن يقف . وانتقل الألم إلى رجله أيضاً فزاد من عذابه ومعاناته . ومع ذلك كان رحمه الله يتحامل على الألم الذي لا يطاق ويصبر ويحتسب .

وكان الأخ حسين عثمان صحفياً في وكالة الأنباء السورية في غاية السرية والانضباط ، لم ينكشف أمره رغم مضي قرابة العشرين سنة على عمله هناك ، حتى تم تكليفه بمسؤولية المكتب الإعلامي بدمشق في إدارة الأخ سالم الحامد . فلما اعتقل سالم اعترف عليه فيمن اعترف . ورغم ذلك كان أبو رشيد يردد بكل احتساب :

لا بأس .. الله يسامحهم ..كله في سبيل الله .

وعلى طيبه واحتسابه كان أبو رشيد مثال الأخ الصلب الذي ثبته الله في المعتقل ، فلم يعترف بأكثر مما اعترف عليه به سالم ، حتى أنهم أتوا له إلى السجن برئيس أركان الجيش السوري حكمت الشهابي في محاولة لإقناعه بالاعتراف . وكان الشهابي وأبو رشيد صديقان من أيام الشباب ، خرجا من بلدتهما معاً ومضيا إلى دمشق زميلين وصديقين رغم اختلاف انتماء كل منهما . وعندما حضر الشهابي إلى أبي رشيد في سجنه حاول أن يحضه على الاعتراف . وجعل يقول له - كما أخبرني أبو رشيد بنفسه : -

اعترف يا حسين .. اعترف والباقي عندي .

وجعل يذكره كيف كان والده مختاراً للمدينة التي أتى منها الشهابي .. وكيف كان على علاقة طيبة بالناس ومن خيرة أهل البلد . وأخذ يمنيه بمساعدته إذا تعاون مع السلطة . لكنه لم يصل معه لشيء . وفيما بعد ، وعندما صرنا في تدمر وضمّنا أنا وحسين مهجع واحد حتى يوم إعدامه ، نال رحمه الله عذاباً شنيعاً على هذا اللقاء ، وحاولوا - كما سيأتي إن شاء الله - إقناع حسين بتوريط الشهابي نفسه استناداً إلى ذلك .. لكنه ورغم البون الكبير بين الرجلين فقد أبى أن يورطه بلا ذنب أو سبب ، ورفض التعاون معهم في هذه المؤامرة الرخيصة حتى ولو كان الثمن حياته .

إلى المنفردة من جديد

مضت قرابة ثلاثة أسابيع على وجودنا في المهجع الجماعي لنفاجأ صبيحة أحد الأيام بالسجان يفتح الباب ويطلب مجموعة من الشباب بأسمائهم . وعندما عادوا بعد فترة لم تطل سألناهم عما جرى فقالوا إنهم أمروهم أن يوقعوا على أوراق وحسب . ما الذي فيها ؟ لم يدر أحد . وتكرر

الأمر وتتابع إخراج الشباب حتى شمل كل الذين اعترف عليهم سالم . وبعد يومين وما كدنا ننهي عشاءنا حتى جاءني الطلب مع ثلاثة أو أربعة إخوة آخرين ، فطمشونا وكبلونا من جديد ، ووجدناهم يقودون كل واحد منا إلى زنزانة منفردة ويقفلوا عليه .

مرت بضع ساعات علي أترقب أي جديد دون نتيجة . ولم يلبث البرد أن بدأ يزحف على جسدي ، وينخر مفاصلي وعظامي . ولم يكن في الزنزانة أية بطانية أو غطاء ، ساعتها افتقدت نعمة الازدحام في المهجع التي أمنت لنا الدفء على أقل تقدير ! ولم أكد أتكور على نفسي محاولاً بث الدفء من جزء من بدني إلى الجزء الآخر حتى أخذ القمل ينشط فيّ ويبدأ عضاته التي لا ترحم ولا تُتَّقى ! ولم تلبث أصوات أخ يعذب أن انطلقت تشق ظلمة الليل ، فأدركت أنني قريب من غرفة التعذيب التي لم نكن نحس بوجودها في المهجع . وازداد الصراخ ، وطال العذاب ، عذاب الأخ يليه الأخ وعذابي أنا . وأخذت الهواجس تطبق علي وتنهش نفسي المنهكة . وعدت إلى مخاوفي التي سكنت بعض الشيء بملاقاة الإخوة والاستئناس بهم في المهجع ، وها أنا ذا هنا من جديد لا أنيس حولي آنس به ولا جليس أشكو مرارة حالتي إليه .

ومضت الأيام علي أسير هذه الزنزانة الموحشة .. يفتح السجان الباب علي الآن ثلاث مرات في اليوم للخروج إلى الحمام .. وليته لم يكن يفعل . فتلك كانت فرصة مالك السجان الموتور وأمثاله ليسلخوا جلودنا بالكبلات من جديد ، ويفرغوا فينا من سموم أحقادهم ما وسعهم الجهد . فإذا عدت عادت إلي الأوجاع والبرد والجوع والكوابيس .. عرضة في أي وقت لنزوة سجان يفرغها في بدني المنهك من غير أي سبب أو تفسير . فلا أملك إلا البكاء والتضرع إلى الله تعالى أن يخفف عنا . وبعد مضي عدة أيام وجدتهم يستدعونني إلى غرفة التحقيق ويسألونني عن أسماء وأشخاص لم أكن أعرفهم بالفعل . فرفعوا الطماشة عن عيني وعرضوهم أمامي . فقلت لا أعرفهم . وتكرر الأمر ، ثم وجدتهم في المرة التالية يعرضونني أنا على أخ معتقل لا أعرفه ، لكنهم لما سألوه هل تعرفه قال نعم . ولقد علمت بعدها أن الأخ كان أحد من كشفتهم اعترافات سالم أيضاً ، لكنني لم أعرف لماذا قال أنه يعرفني رغم أنني لم أره من قبل بالتأكيد . ولم ألمه فيما قال وقدرت أن التعذيب لا بد وأن طاله مثلما طال البقية . لكن ذلك كان من أصعب الأمور حقاً . فالواحد لا يكاد يصدق أنه أغلق الأبواب عليه وانتهى من دوامة العذاب والتحقيقات ليأتي من يفتح عليه الباب ويعيده إلى مسلسل الرعب من جديد !

باب جديد !

وفتح الباب علي .. وعادت ليالي العذاب والجلد والسلخ والكهرباء . عشرة أيام أو ربما تزيد من التعذيب : أين هي المخابئ ؟ أين أماكن السلاح ؟ أين فلان ومن هو علان ؟ وأنا لا أعلم عما يتكلمون عنه شيئاً أبداً . والكبلات تأكل من جسدي وتشرب السياط من دمي ولا مغيث ! حتى أشرفت على الهلاك فعلاً ولم أعد أستطيع جذب النَفَس . ويبدو أنهم اقتنعوا ببراءتي هذه المرة

وشعروا أنه ليس لدي شيء بالفعل فتركوني . وعدت إلى المنفردة ألعق جراحي وأستجمع كياني المحطم ثلاثة أو أربعة أيام تاليات ، لم يطلبوني فيهن إلى التحقيق أو يخرجوني إلى التعذيب .

ومن غير مقدمات وجدتهم في ليلة تالية نادوا علي ضمن قائمة مطولة من الأسماء أذكر منهم إذا أسعفتني الذاكرة الإخوة : هيثم ملا عثمان وجمال عيار من حلب . ووضاح الدن من قرى حلب كذلك . وقاسم موسى من مدينة تدمر . وحسين رشيد عثمان من الباب . ومحمد ثابت ناعس و نديم منصور من إدلب . ومحمد طاهر مصطفى وإبراهيم أحمدو من أريحا . ومصطفى الشر من جسر الشغور . وشريف البعث من إدلب . وعمر الحيدر وحزين قاسم المحاميد من معرة النعمان . وإبراهيم طوبل وعمر حمزة من المعرة أيضاً . وشاكر مومه وكمال أندورة من دمشق . وأخ من حماة هو شقيق محمد فخري .

وانتهت تلاوة الأسماء . وأمرونا أن نجهز أنفسنا جميعاً لرحيل جديد . إلى أين ؟ لم يقل أحد بالطبع . ولم يكن لأي منا القدرة حتى على الهمس . ووجدناهم يفتحون علينا الزنزانات ويسوقوننا تحت السياط ولسعات الكبل واللكمات ككل مرة إلى الذاتية ، فنستلم أماناتنا ، ونكمل تحت وابل اللكمات والركلات إلى سيارة النقل المغلقة ذاتها أو سيارة اللحمة كما كنا نسميها . فنكبل كالعادة ونطمش ، وتقيد رجل واحدنا برجل الآخر ويده بيده ، ويودع كل منا بلطمة أخيرة منتقاة ، لنجد أنفسنا أكثر من أربعين شخصاً محشورين في تلك العلبة المغلقة .. تتحرك بنا تحت جنح تلك الليلة نحو رحلة أخرى من المجهول!

الفصل الثاني

أبو جهل !

لم يكن سهلاً علينا في البداية أن نتكهن إلى أين نمضي ، ولم يكن ممكناً لنا في نفس الوقت أن نتبادل الآراء أو أن ننبس ببنت شفة ، لكن الوقت الذي طال علينا والسرعة المنتظمة التي أخذت السيارة تحافظ عليها أوحت إلينا أننا الآن خارج العاصمة نتجه إلى مكان بعيد ، لم نلبث أن رجحنا هذه المرة أن يكون تدمر لا غير . وبالفعل وفي نهاية المطاف توقفت السيارة بنا وسكن هدير محركها ، وفتح الباب الحديدي علينا وأتانا الأمر بالنزول .

سرت القشعريرة في بدني فور أن نزلت من السيارة ولسعتني قرصة البرد الصحراوي قبيل الفجر . ولم نلبث أن وجدنا العناصر الذين أتوا بنا يرفعون الطماشات عن أعيننا ويفكون القيود من أيدينا وأرجلنا ويرموا بها في السيارة لأنها عهدة الفرع هناك . وبرغم الظلام الحالك إلا أن الأنوار التي تسلطت علينا كانت كافية لنرى أفراد الشرطة العسكرية يحيطون بنا ويجرون مع عناصر المخبرات إجراءات الاستلام والتسليم ، ولنعلم من ثم أنه سجن عسكري ذاك الذي وصلناه .. وأنه لكل المعطيات التي اجتمعت سجن تدمر لا ريب !

لم يطل الأمر بنا لأكثر من ثوان معدودات حينما هجم عناصر الشرطة العسكرية علينا وبدؤوا يجذبون كل من تحرر من القيد منا فيركلونه ركلة يجد نفسه من فوره على باب صغير ، ينتظره على جانبه شرطي آخر يجذبه بيديه كخروف تعس الحظ ويركله مرة ثانية ليلج الباب . وهناك وما أن دلفتُ حتى استقبلتني لطمة شرطي ثالث حولت وجهي إلى الجدار . وتتابع وصول الإخوة الآخرين إلى الجدار بنفس الطريقة ، حتى إذا اكتمل عددنا وانتهت الدفعة أحسسنا ووجوهنا إلى الجدار كلنا أن شخصاً مهماً قد حضر . ونادى أحدهم وفق الإجراء العسكري المتبع :

حاضر سيدي المساعد .

وانطلق من وراء ظهورنا صوت مساعد السجن أحمد كيساني كما علمنا لاحقاً أو أبو جهل كما سماه السجناء .. انطلق من غير مقدمات يلعن آباءنا وأجدادنا ويَفْجُرُ بحق أمهاتنا وأعراضنا وديننا .. كان مضحكاً مبكياً أن ينادينا هذا المجرم الوالغ في دماء الأبرياء يقول :

يا خَوَن (أي خونة) .. يا عملاء الصهيونية !

وانطلقت السياط من غير إنذار تسلخ جلودنا المكشوفة لهم ، فإذا صاح واحدنا أو تأوه ضاعفوا عليه العذاب . لكن حفلة التعارف ما كانت لتبدأ من قبل أن نتلقى أصول الإتيكيت السائد ! ولم ألبث أن طرق سمعي صيحة أبي جهل هذا ينادي عساكره :

أحضروا هذا العرص أبو الجينز .

وكنت وقت اعتقالي ألبس بنطال جينز قدراً ، فكأنما وجده نقطة علام تساعده على أداء مهمته . وجذبتني الأيدي كملاقط الحديد ورمتني أمام سيادة المساعد ، فلما رفعت عيني إليه أريد أن أستطلع الخبر صاح بي ملء صوته :

غمض عينيك ولا .

وهجم عناصر الشرطة علي فبطحوني أرضاً يركلونني ويجلدونني من كل اتجاه . وأتتني وسط هذه العاصفة لسعة كرباج على عيني رأيت الشرر والله خرج منها ! وأدركت لاحقاً أن هذا الذي أصابني كان مجرد درس تعليمي لنا وحسب ! فالقوانين هنا في سجن تدمر العسكري غيرها في أقبية المخابرات بدمشق . وإذا كانت التعليمات تقتضي هناك أن تبقى عيوننا معصوبة مطمشة على الدوام حتى لا نرى أحداً من المحققين أو الجلادين ، فإنها هنا توجب علينا أن نكشف عيوننا وأن نمتنع رغم ذلك عن رؤية أي أحد منهم ! ولو نزلت على واحدنا كبلات الأرض أو قطعت لحمه السياط فالواجب المحتم عليه أن يبقى مغمض العينين !

الذاتية

وتوقف الضرب فجأة بإشارة من أبي جهل ، وأتاني صوته القبيح :

راسك بالأرض ولا وغمض عينيك .

وساد المكان سكون رهيب لبرهة من زمن . فلما أدرك أن الدرس الأول وصل المجموعة كلها صاح من جديد :

قل حاضر سيدي ولا .

قلت ورأسي في الأرض وعيناي مغمضتان : حاضر سيدي .

قال : كم عملية إنت عامل ولا عرص ؟

قلت : ولا عملية سيدي .

قال وكأنني أنا الذي أشتمه : ولا عرص .. بتكذب ؟

وانهالت الكبلات والسياط علي من جديد . وجعلت أتلوى على الأرض كالذبيحة لا أدري أين المفر . والإخوة وجوههم كلهم إلى الجدار وصياحي وعواء الشرطة من حولهم وحولي يفتت أعصابهم ويفري قلوبهم . ولم يلبث الدور أن تحول ونادى أبو جهل من جديد :

واحد واحد من هون يا خَوَن اطلعوا لبرة .

وساقتنا اللطمات والكرابيج من جديد إلى باحة أخرى تتصدرها غرفة الذاتية ، أجلسونا خمسة خمسة أمامها وبدؤوا يدخلوننا واحداً تلو الآخر إليها ، والشرطة خلفنا يركلوننا بأرجلهم أو يصفعون رؤوسنا بأيديهم ويلسعون ظهورنا بالكرابيج والكبلات وهم لا يكفون عن شتمنا وتوعدنا وتهديدنا :

هلق بنفرجيكم يا خَوَن .. هلق بس تخلصوا يا ويلكم .. والله لنعمل ... بأمهاتكم وأخواتكم .. والله الموت مصيركم يا ..

ولم يكن الزبانية كاذبون في ذلك ، فلقد اعتادوا قتل الناس بأنفسهم وفعلوا ذلك مرات لا تعد . ووفوا وعدهم في المستقبل وأزهقوا من أرواح الإخوة من نفس الدفعة عدداً ربما فاق من بقي منهم على الحياة !

التعليم !

لم يكن الفجر قد طلع بعد ، والبرودة التي أطبقت علينا من كل اتجاه ونحن في ملابسنا الصيفية الخفيفة التي اعتقلنا بها زادت عليها برودة الإسمنت الذي أجلسونا فوقه ننتظر أن نلج غرفة الذاتية تلك . فلما حان دوري وقد كدت أتجمد رغم السياط التي أصابتني دخلت فوجدتهم يسألونني كالعادة عن اسمي وسني وعنواني .. وعلمت أثناء ذلك أننا اليوم في العاشر من شباط عام 1981 . فلما علموا أنني أردني الجنسية ثارت ثائرتهم وانتفضت أوداجهم وانهالوا علي ضرباً ولكماً وشتماً بأقذع الألفاظ . ولم يكن معنى ذلك أنها غضبة ساعة وحسب . فلقد تبين لنا لاحقاً أن الشخص الذي يلقى معاملة خاصة من هذا النوع ساعة استقباله في الذاتية فقد "تعلّم" . و"التعليم" معناه أن الشرطة قد ميزوه عن غيره لسبب ما .. وأنه محتم عليه بالتالي الهلاك لا محالة .. في العاجل أو في الآجل القريب . غير أن الله سبحانه قدر ولطف ، وحدث أن تغيرت النوبة التي استقبلتنا في تلك الأثناء .. وذهبت مجموعة الشرطة التي كانت علّمتني وقتذاك وحضر آخرون فاتتهم هذه الملاحظة عني .. فأنجاني الله من موت محقق !

قصاص !

وانتهت إجراءات التسجيل ، وصرنا الآن جزء من عهدة تدمر رسمياً ، وعلينا أن نتلقى مراسيم الاستقبال الرسمي الآن .. فكل هذا الذي سبق تبين أنه لم يكن ضمن الحساب !

تجمع موكبنا الحزين خارج الذاتية ، فإذا بنا أمام باب كبير كفم الغول .. أخذتني لمحة من عيني إلى أعلاه فهالني أن أقرأ قول الله تعالى مخطوطاً هناك (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) تحوطه شعارات النظام المعروفة "أمة عربية واحدة . ذات رسالة خالدة " !

دخلنا الباب ونحن نقرأ على الدنيا وراءنا السلام ! ووجدنا أنفسنا في باحة إسمنتية تحيطها المهاجع التي أمرونا أن نصطف على جدرانها مُسْلِمين للوحوش رجال السَرِيَة كلهم ظهورنا بالاختيار ! ولم يلبث الزبانية أن بدؤوا يسحبون الواحد منا تلو الآخر فيعرونه من ثيابه إلا الشورت ، ويفتشونه مرة أخرى من باب الاحتياط . وفي الوقت الذي يتولى قسم من الشرطة الإخوة المتجهين إلى الجدار بالضرب والجلد والركلات ، وبينما يعلو الصياح وترتفع أصوات الاستغاثة ولا مغيث ، تجذب الأيدي القاسية الأخ الذي تجرد من ثيابه وبات جاهزاً أو تدفعه فيختل توازنه ويقع على الأرض ، ليكون الدولاب في استقباله واثنان من الشرطة العسكرية على جانبيه ينزلانه فيه . فترتفع الرجلان في الهواء .. ويفقد واحدنا القدرة إذ ذاك على التحرك . لكن الجلادين ولزيادة الاحتياط وتحقيق مزيد من الإتقان يربطان الرجلين بجنزير من الحديد تعدم أية فرصة لهما للتحرك قيد أنملة .

ويبدأ الضرب من غير رحمة ومن غير عد .. فإشارة الانتهاء لدى الوحوش أولئك أن تتفتح بطن الرجل وتسيل منها الدماء . فإذا تم ذلك فكوا القيد عن الرجلين وأخرجوا المعتقل من الدولاب وأمروه أن يفتح كفيه ليتلقى هدية أخرى . وتنهال على الراحات سياط من الجلد العريض سمعنا أنها صنعت من حزام مروحة الدبابات ! حتى إذا حل بالأيدي مثل الذي حل من قبل بالأرجل وتأكد الجلادون أن الدم الآن يسيل أمروا ضحيتهم بالانبطاح . ولا يكون المسكين بحاجة لسماع الأمر لأنه منهار ومُنْتَهٍ بذاته ، فيستقبل الأرض لا حول له ولا قوة .. وتلحق به السياط والعصي تأكل الآن ظهره وجنبيه : خمسون .. مائة .. وربما مائتا جلدة قبل أن يتوقف الزبانية .

ويدخل الحفل مرحلته الأخيرة ، فيقفز أحدهم فوق ظهر الضحية ويلحقه ثان فيقلبه ويعلو صدره .. ويأخذ كلاهما يعفسانه ويركلانه ويمسحان به نعالهما العسكرية الغليظة .. حتى تتكسر الضلوع وتتهتك بقايا الجلد السليم . وتكون الدائرة قد مرت على الدفعة كلها ، وسالت دماء الإخوة جميعاً ونال كل واحد منهم نصيباً من العذاب غير موصوف . ولكم فُقِدَ في حفل الاستقبال ذاك من إخوة وماتوا من غير أن يأبه أحد . ولكم خرج من هذا الجحيم من خرج كسيراً أو صاحب عاهة من غير أن يزيد ذلك الزبانية إلا سروراً وغروراً .

المهجع 26

مضت ثلاث أو أربع ساعات على حفل استقبالنا هذا وسطعت علينا الشمس فهالنا أن نبصر أنفسنا وكأننا سرب طيور منتوفة الريش ! ومن قبل أن نلتقط أنفاسنا صاح بنا أحدهم أن نلبس ثيابنا ونمشي . ومشينا .. نازفي الجروح مطأطئي الرؤوس . لكن السياط والكبلات لم ترحمنا . ووجدنا أحدهم يهوي علينا بعصا لا أظنها والله إلا جذع شجرة .. إذا هوت على الظهر فلقته . فإذا أصابت الرأس أو الصدغ فالواحد ميت لا محالة !

وكان معنا أخ من إدلب اسمه نديم منصور أصيب أثناء اعتقاله بطلقات رصاص في ساقه وساعِدِهِ ولم يكن يستطيع السير . فتقدمت أنا وأخ من حلب اسمه جمال عيار وحملناه . أنا أمسكه من كتفيه وجمال يرفعه من رجليه . وركضنا وركض الشرطة وراءنا يضاعفون علينا العذاب .. وكدنا مرات عديدة أن نقع ويقع الأخ معنا . ولم نكن ندري إلى أين سينتهي هذا الجري بنا .

وجعلنا ندخل من باحة إلى أخرى ونعبر من باب إلى باب حتى وصلنا آخر الأمر إلى الباحة السادسة من السجن ، ووجدنا أنفسنا نساق إلى مهجع كبير فيها هو المهجع السادس والعشرون . وهناك وبعد أن اكتمل وصولنا وجدناهم يصفوننا على الجدار من جديد ، ومضى الشرطة فختموا لكل منا بضربة عصا على ظهره الدامي لتهد ما يمكن أن يكون تبقى من جَلَدٍ فيه . حتى إذا هدأت الأصوات وسكنت الحركات دخل المساعد أبو جهل المهجع .. وافتتح كلمة ترحيب جديدة حافلة بأقذع المسبات وألفاظ الكفر بالله .. وزف إلينا وسط عباراته الناضحة بشرى وصولنا سجن تدمر .. تدمر التي ستكون فيها نهايتنا .. نحن الخون العرصات العملاء ال.... .

وانتهت الكلمة الترحيبية بنا ، وخرج أبو جهل يتبعه الزبانية ، ووجدنا الباب يغلق علينا ، وصمت كصمت القبور يلفنا . وسرعان ما ألقى كل منا بدنه المنهك على الأرض .. يود لو أن مال الأرض كله بين يديه فيفتدي به ساعة من غير عذاب !

في انتظار المجهول !

أغلق الباب وظننا أننا نلنا اليوم نصيبنا كاملاً من العذاب ولن يكون هناك مزيد . غير أن الأمل تبخر لحظة أن نادى علينا صوت أجش من فوقنا يصيح :

الكل لم عالزاوية ولا .

أفزعتنا المفاجأة .. فلم نكن نتصور أن فوقنا داخل المهجع زبانية من الشرطة العسكرية أيضاً . وعندما رفع أحدنا رأسه يستطلع من أين جاء الصوت ناداه الشرطي وهو يشتمه :

أنت يا .. علّم حالك ولا . ولما أقول وين المعلّم بتطلع لبرة ..

وكالقطيع المرعوب انكمشنا نحن في زاوية من زوايا المهجع حيث أمر ، وأطرقنا برؤوسنا نترقب المجهول . وأخذنا نحاول بحواسنا المتوترة أن ندرك معالم هذا المهجع الذي ضمنا من حيث لم نحتسب . ولقد أدركنا لاحقاً أن البناء عبارة عن غرفة كبيرة مستطيلة ، ثمة دورة للمياه على يسار الداخل من الباب ، فيها حمامان تتوسطهما مغسلة وحوض . وأما بقية المهجع ففي حجم ثلاث غرف متتالية ، تحيط زاوية التقاء جدرانها الأربعة بالسقف نوافذ مفتوحة على الدوام ، عليها قضبان من الحديد وحسب ، غير أنها من العلو بما يكفي لمنع وصولنا إليها أو مشاهدتنا لما يجري في الخارج عبرها . وفي السقف نفسه هناك فتحتان مساحة كل منهما متر بمتر تغطيهما قضبان من الحديد الغليظ أيضاً ، يستطيع عناصر الشرطة الذين يتناوبون فوقنا أربعاً وعشرين ساعة في اليوم أن يروا كل ما يدور بيننا من تلك النافذتين ، أو الشراقتين كما تسميان باصطلاح السجون .

السخرة

ومضيت أتحسس جراحي وألملم بدني المنهك في سكون .. وانشغل كل منا بحاله فلا تسمع إلا اضطراب الأنفاس وأنات الألم تنطلق بين تارة وأخرى فلا يلبث صاحبها أن يكتمها ويشد على الجراح بصمت .

وانقضت ساعتان أو أكثر بقليل ، وفتح الباب فجأة ودلفت دفعة جديدة من المساجين الجدد تجاوز السبعين أغلبهم شباب في مقتبل العمر من طلاب الثانوية العامة أو الجامعة .. علمنا لاحقاً أنهم كلهم من مدينة حمص ، وأنهم نالوا مثل العذاب الذي نلنا ، ولكننا لم نسمع أصواتهم لأن إجراءات الاستقبال تمت كذلك بعيداً في الباحة الأولى مثلنا . غير أن الشرطة لم يحرمونا من أن نتنعم بسماع صيحات الألم والعذاب ، فلم يلبث أحدهم أن فتح الباب ونادى فينا وكأن له ثأر قديم يريد أن يشتفي منه :

وين المعلّم ولا ؟

فعلمنا أن الأمر جد إذاً ، وأن الأخ لا بد وأن ينال عقوبة تلك النظرة الخاطفة . وخرج المسكين وكان اسمه صالح الوقاع أستاذاً لمادة العلوم من مناطق دير الزور . وانهال عليه الشرطي لطماً وصفعاً وجلداً ، وصراخه يصم آذاننا ويشوي قلوبنا ولكننا لا نملك له إلا الدعاء .

ولم يكد هذا المشهد أن ينتهي حتى فتح الباب مرة أخرى ونادى عنصر من الشرطة فينا :

من كان منكم عسكري ولا .

غير أن أحداً منا لم يجب . أعاد السؤال فسكت الجميع . وفي المرة الثالثة رفع أحدنا يده وكان اسمه وضاح الدن من قرى حلب وقال :

أنا سيدي .

قال الشرطي : أنت عسكري ولا ؟

أجاب نعم سيدي .

قال الشرطي وهو يرمقه بقرف : ماشي الحال .. قدم الصف لأشوف .

فوقف الأخ وفق الإجراءات العسكرية ونادى فينا :

انتب......ه . است......رح . است......عد .

وفي الوقت الذي لفنا الإضطراب ولم نعلم بم نتصرف صاح الشرطي فيه :

بتقول استرح استعد المهجع جاهز للتفتيش حضرة الرقيب . تفعل ذلك كل ما سمعت أي حركة على الباب يا ...

فطور بالإكراه !

وخرج حضرة الرقيب .. وجعلنا نحوقل في سرائرنا ونسأل الله اللطف والستر .. ولم يلبث أن فتح الباب من أجل إدخال الفطور . وقفز الأخ من مكانه وصاح بنا اللازمة التي تعلمها :

انتب......ه . است......رح . است......عد .

ولكنه تلعثم قبل أن يعلن جاهزية المهجع للتفتيش فلم نكن قد عرفنا بعد كيف يكون ذلك أو كيف ننفذ هذا الأمر في هذه الظروف . ونادى الرقيب وهو يكاد يزمجر :

السخرة .. وين السخرة ولا ؟

ولم يكن قد مضى على وجودنا في المهجع وقت يكفي لنلتقط فيه الأنفاس فكيف لنا أن نفكر بالسخرة وبالطعام ! فلما وجد الرقيب الحالة لم تنضبط والأمر لم ينفذ سحب الأخ وضاح إلى الخارج وانهال عليه صفعاً وركلاً ، فلما انتهى رمى به إلى الداخل ونادى من جديد :

من كان منكم عسكري يا ...... ؟

في تلك المرة خرج الأخ جمال عيار وأجاب . وكان جمال أو أبو الفضل كما كنا نناديه خريج المدرسة الشرعية بحلب يخدم الجندية الإلزامية حين اعتقل . وكان رحمه الله ممتلئ الجسم قصير القامة ، فناداه الشرطي سائلاً :

أنت عسكري ولا ؟

قال بثبات واحتراف : نعم سيدي .

قال له : أدخل الفطور الآن .

ودخل علينا جمال بطشت بلاستيكي فيه بعض قطع الجبن وأرغفة الخبز العسكري الجافة ذاتها . تبعها بسطل من الشاي يبعث منظرة على القرف . ولم يكن لأحد لا قدرة وقتها ولا شهية لتناول شيء ، لكننا وجدنا الشرطي ينادي من فتحة السقف فوقنا ويصيح :

الكل واقفاً ولا .

فانتفضنا وقوفاً كلنا .

وجهك عالحيط ولا .

استدرنا من غير أن ننسى هذه المرة أن نغمض أعيننا ونخفض رؤوسنا نحو الأرض .

رئيس المهجع . شيل قطعة الجبنة وطعميهن هالعرصات واحد واحد .

فأخذ أبو الفضل يطوف علينا ويدس في فم كل منا قضمة جبن . فلما انتهى ناداه الشرطي من جديد :

املأ قصعة الشاي وشرّب هال... بالتناوب .

ونفذ جمال ما أمر الشرطي به . وجلسنا من ثم في أماكننا صامتين واجمين . وقتذاك كانت الشمس قد سطعت وتسللت أشعتها الدافئة من نوافذ المهجع العليا فنشرت فينا الدفء والارتياح

لبرهة . غير أن الباب لم يلبث أن فتح من جديد فقفز جمال ونادى باللازمة . ودخل هذه المرة أبو جهل وبعض الزبانية حوله ونادى :

رئيس المهجع . ضب كل المساجين لجوه .

فاجتمعنا كلنا في زاوية داخل المهجع ، فيما دخل عدد من عناصر "البلدية" وفق مصطلح السجن الذي تعلمناه لاحقاً ، وهم المساجين غير السياسيين من العساكر الذين يقضون عقوباتهم في السجن . وأدخل أولئك كوماً من البطانيات المنتنة فكدسوها على مقربة من أقدام المساعد والشرطة العسكرية وخرجوا . فنادى أبو جهل من جديد :

الكل في صف واحد ولا .

فانتظمنا في صف واحد أخذ يمر أمامه وقد أغمضنا أعيننا كلنا وخفضنا هاماتنا . فجعل الشرطة يسلمون كلاً منا بطانيتين وكل اثنين منا عازلاً مشتركاً . والعازل عبارة عن خيمة بالية من خيام الجيش مغطاة بالبطانيات العتيقة . فلما تم الاستلام وفوق البَيْعَة ما لا يعد من اللعنات والشتائم قال أبو جهل يخاطب رئيس المهجع وبقية السامعين :

هذه البطانيات والعوازل عهدة .. وكل واحد مسؤول عن عهدته ولا .

وتلقينا العهدة والتعليمات والشتائم ونحن لا نزال مغمضي العيون خاشعي الحركة . وسمعنا المساعد وأزلامه ينسحبون ويغلقون الباب علينا .. فألقينا عهدتنا الثمينة تلك وألقينا فوقها أجسادنا المنهكة .. لا ندري ماذا نفعل أو نتوقع في الخطوة التالية .

التفقد

وبلغت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر . ووجدنا الباب يفتح من جديد . وانتفض الأخ جمال فقدم الصف . ودخل الرقيب وصاح فيه :

صفهم خمسة خمسة للتفقد .

ولم يكن علينا إلا التنفيذ . لكن الفزع الذي غمرنا جميعاً جعلنا نتدافع مضطربين كل منا يتحاشى أن يأتي إلى طرف الشرطي ، فلما طال الأمر ولم ينتظم الصف دخل الشرطة علينا وأوسعونا ضرباً وجلداً ، وجمال رحمه الله يجهد في أن يساعدنا على الانتظام في الصف قدر الإمكان . وتم الأمر أخيراً ، وعَدُّونا فكان العدد فوق المائة . وصار واضحاً لدينا الآن أن هناك جزءاً

أساسياً في البرنامج اليومي يسمى التفقد ، الجلد والضرب والشتائم لوازم ضرورية لا بد وأن تلازمه .. مثلما هي لوازم لا تنفصل عن أي مناسبة أخرى تتاح للشرطة فيها أن يسفكوا دماءنا !

وخرج الشرطة .. وعدنا كل إلى ذاته مطرق الرأس مشتت الفؤاد . لا يكاد واحدنا يسمع أدنى حركة حول المهجع أو فوقه حتى ينتفض كالمحموم ! وكلما ود أحدنا أن يرفع الطرف لينظر حوله تذكر ما حل بالأخ صالح فيرتد إليه طرفه وهو حسير !

وهكذا مضى اليوم .. ومرت أيام أخر ، لا يجرؤ أحدنا أن يكلم جاره الذي ينام معه على عازل واحد ، أو يهمس حرفاً لأقرب الناس إليه . والبرنامج اليومي يتكرر كاللازمة : نستيقظ في السادسة ، فنضب العوازل والبطانيات ونقبع فوقها صامتين واجمين .. ولا يلبث أن يفتح الباب فننتفض جميعاً ونقف في حالة الاستعداد . وتخرج مجموعة منا لاستلام حفنة الطعام التي يعتبرونها الفطور مجازاً . فنزدردها بلا شهية ، أو نجمعها في ركن الحمام من غير أن يقربها أحد . وربما مرت على الواحد منا الوجبة والوجبتان والخمس وهو لا يمس من الطعام من قلة الشهية شيئاً . ولكم اضطر رئيس المهجع إلى رمي الطعام في الحمام لأن أحداً لم يأكله خشية أن يكتشف الشرطة ذلك فننال ما نحن بغنى عنه !

فإذا انتهى الفطور من غير مشاكل حان وقت التفقد . فنستعد ونأخذ حسبنا الله لساعة تعذيب لازم . وينال كل منا نصيبه المقدور .. ونعود إلى جلستنا مترقبين حذرين . ولا يلبث الشرطة أن ينادوا علينا للتنفس هذه المرة . فنخرج إلى الساحة مطرقي الرؤوس مغمضي العيون .. يمسك واحدنا أخاه الذي أمامه من وسطه ويتبعه كالأعمى .. لتتلقانا الكبلات والعصي فتقودنا بالإكراه إلى حيث يشاؤون . وترانا كقطيع مسعور نجري حول الساحة والكرابيج والكبلات والضربات تلاحقنا أنى اتجهنا . فإذا زلَّ أحدنا أو وقع تعثر به البقية وتكوم فوقه المتساقطون .. فتزداد فرصة الشرطة لزيادة الضرب ومضاعفة العذاب . ويعلو الصياح وأصوات الاستغاثة ، فتعلو عليها عبارات الكفر والشتائم البذيئة .

فإذا انتهى وقت التنفس وقادتنا الكَبْلات صوب المهجع من جديد ، تكون على الباب ملحمة أخرى دامية . فمائة ونيف من هؤلاء البؤساء ليست أمامهم إلا فتحة هذا الباب لينفذوا منها . عيونهم مغمضة فلا يستطيعون مشاهدة موطئ أقدامهم ، والسياط والهراوات تلاحقهم من كل حدب وصوب . فتنحشر الأكتاف والرؤوس ، ويسقط من يسقط تحت الأقدام ، ويشج البعض بعارضة الباب الحديدية . فلا تنتهي حفلة التنفس تلك إلا وقد دمي من بيننا أكثر ممن سلم ، وأصيب أضعاف من نجا .

طعام ومنام !

وهكذا كنا نعود إلى المهجع لنلعق جراحنا بصمت ، ونتأوه تخنقنا الحسرات والعبرات .. ويحين موعد الغداء بعد حين .. ولا يلبث أن يأتي من ثم العشاء . ونحصي إذا قدرنا نصيبنا الذي نلناه على مدار اليوم من الطعام فلا نراه يكفي لأن يسد رمق طفل صغير : صمونتان صغيرتان جافتان للوجبات الثلاث . ورشفة شاي على الفطور مع بضع حبات زيتون أو لحسة مربى أو حلاوة لا تملئ ملعقة واحدة . ومرق أحمر للغداء لا يكاد يكفي لكي يبلل الصمونة التي فتتناها فيه . وبعض حبات الحمص المسلوق أو أجزاء من البطاطس المسلوقة للعشاء .. وحسب ! ولربما استُبْدِلَ البيض بالبطاطس مرات ، أو شوربة العدس بالحمص المسلوق . لكن قلة الكمية وسوء النوعية كانت تثير فينا الشعور بالجوع أكثر من أن تلبي حاجتنا إلى الشبع ! فنصيبنا من البيض إذا حضر لم يكن يتجاوز البيضة الواحدة لستة أشخاص . ومن الأرز ملعقة صغيرة واحدة للشخص . ومن اللحم أقل من رأس العصفور في المناسبات . وإذا أحضروا دجاجاً كان نصيب المهجع كله خمس أو ست دجاجات مقابل أكثر من مائة فم ! حتى أننا بتنا نعتبر الطعام نوعاً إضافياً من العذاب ليس إلا ! وصار اعتيادياً بيننا أن نأكل قشر البرتقال وقشر البيض والبطيخ ولا نرمي من الفضلات في القمامة شيئاً . ولكن النهار لا بد وأن ينتهي ، ويحل موعد النوم في السادسة ، لكنه النوم الذي يحرم على صاحبه أن يتنعم بالنوم فيه ! فالضوء داخل المهجع لا يطفئ ليل نهار ، والشرطة على السطح يراقبوننا باستمرار . ولو نمى إلى سمعهم صوت همس أو حس حركة من بيننا علّموا صاحبها على الفور فكان نصيبه من العذاب في الصباح ما لا يسر !

ولقد كانت الصلاة وسط هذا الظرف نوعاً من التهلكة بالطبع ، ولكم أخرج الشرطة رئيس المهجع وانهالوا عليه ضرباً يسألونه عمن يصلي عنده من المساجين ليدلهم عليه . ولذلك كنا نصلي إيماء من أول يوم . كل بسرّه وحده من غير ركوع أو سجود . لكن النعمة التي وجدناها في ذلك المهجع كانت في الحمام . فلم يكن من رحمة الله للحمام شراقة تكشفه ، ولذلك كنا نتوضأ آمنين ، وننسحب إلى بطانياتنا فنستلقي تحتها ونصلي مومين بسكون وهدوء .

إلى الحلاق !

وانقضى قرابة أسبوع على هذه الحال .. وبدأنا نألف الوضع الجديد ونتأقلم معه . وأخذنا نجرؤ على النظر إلى بعضنا البعض والهمس فيما بيننا ولو بكليمات . وقام الأخ جمال رئيس المهجع فقسمنا إلى مجموعات صغيرة للسخرة ، فساعدنا ذلك على الخروج من حالة الوجوم تلك ، وبدأنا نتعرف على الأفراد المحيطين بنا من غير أن نجانب أقصى أسباب الحذر . لكننا وبعد أن ظننا أن البرنامج استقر على هذه الحال فوجئنا بهم ينادوننا للخروج من المهجع مرة واحدة في غير موعد التنفس . ووجدناهم يسوقوننا مغمضي العيون إلى زاوية من زوايا الباحة تلاحقنا

الجلدات والسياط كالعادة . وهناك صفونا على الجدار وجعلوا يخرجوننا خمسة وراء خمسة في صف واحد ، لنجد في انتظارنا ثلاثة من السجناء العسكريين الذين يسمون "البلدية" بلغة السجن يقومون بدور الحلاقين . وغالباً ما يتم اختيار أولئك من أبناء طائفة النظام الذين يقضون عقوبة ما في سجن تدمر ، فلا يقلون حقداً ومكراً عن بقية السجانين من الشرطة العسكرية . وعندما يصل واحدنا إلى أول الحلاقين يأتيه الإيعاز بلهجة الأمر :

وراء دُرْ .

فيستدير .

ارفع راسك .

فيرفعه من غير أن يفتح عينيه . ويمر الحلاق بالفرشاة والصابون على الذقن فيطريها . ويرسله إلى الحلاق الآخر فيفعل ما فعل الأول . وينتهزها "البلدية" فرصة لينفثوا فينا أحقادهم الطائفية . فشتيمة من هنا ، ودس للفرشاة في الفم أو الأنف من هناك ، ولطمة أو صفعة هنالك .. وأما المسبات فكلها بالمجان وعلى الحساب ! وعندما نصل للحلاق الثالث على الشاكلة نفسها ، يمر بالموس على الذقن فيحلقها ، والشرطة من ورائنا يصيحون فيه :

اذبحه هذا الكلب .. أو اسلخه هالعرص .

فيلبي الحلاق الطلب بكل امتنان ، فيضيف على الوجه جرحاً أو أكثر . ولا يبخل بمزيد من الصفعات والمضايقات . فإذا انتهى انتقل الصف إلى حلاقة الشعر ، فيجثو السجين على ركبتيه ، يداه وراء ظهره وعيناه مغمضتان . وأؤكد هنا أنني طوال السنوات التي أمضيتها في تدمر لم أشاهد وجه الشخص الذي كان يحلق لي قط إلا خلسة .. وكنت دائماً مثل الآخرين مغمض العينين مطبق الجفنين ! وعندما تنتهي حلاقة الرأس واللحية والشاربين التي تستخدم بها ماكينة يدوية بالطبع ربما انتزعت الشعر بدل أن تحلقه ، أو أصابت الوجنات فأدمتها لتبهج الحلاق .. عندما تنتهي يأتي الإيعاز من الشرطة خلفنا :

منبطحاً .

فننبطح .. ويتقدم واحد منهم أو أكثر ليقدموا لنا ما كنا نسميه "نعيماً" الحلاقة ! فيبدؤوا بالقفز فوق ظهورنا ، أو يوسعونها جلداً وركلاً ، ولا ينسوا نصيبنا وافراً من الشتائم والمسبات . فإذا انتهوا وقت أن يحلو لهم الانتهاء ، عدنا محطمين إلى الجدار من غير أن يكف الشرطة عن جلدنا وضربنا وركلنا ونحن ننتظر أن ينتهي المهجع كله من الحلاقة .

ولقد كانت مفاجأة لنا أول مرة حينما عدنا بعد هذه المعمعة إلى المهجع وأقفلوا علينا الباب ، فوجدنا أنفسنا بالقرعة تلتمع رؤوسنا كثمر البطيخ .. فلم نتمالك أنفسنا من الضحك رغم الألم . ثم وجدنا أنفسنا بعد ذلك لا نألف إلا هذا الشكل فينا ، ولا نعرف إلا هذا النوع من الوجوه !

حمام الدم !

وانتهت الحلاقة ، لكن البرنامج لم ينته . ولم يلبث مناديهم أن نادى فينا :

الكل برة بالشورت ولا .

فظننا أنها حفلة تعذيب جديدة . وبدأنا نراجع أنفسنا علنا ندرك ما حدث . ووجدتنا نساق مغمضي الأعين عاريي الصدور مكشوفي الظهور حفاة نتبع واحداً من الشرطة كالنعاج لا صول لنا ولا قوة . تتناوشنا السياط من كل اتجاه ، وتهوي علينا الصفعات والركلات في كل خطوة . وعندما صادفنا "البلدية" الذين كانوا يوزعون الطعام على إحدى الباحات في طريقنا وجدناهم يهجمون علينا فكأننا الطريدة العاجزة أمام كلاب الصيد ! وانتهت بنا المسيرة بعد قرابة الربع ساعة إلى الباحة الأولى ليعلموننا هناك أنها ساعة الحمام أتت .

وعندما يذكر الحمام عادة يتبادر إلى الذهن الماء الدافئ أول ما يتبادر .. والصابون والطيب والاسترخاء .. لكن الأمر لم يطل بنا لنعرف الحقيقة . ووجدناهم يقسموننا قسمين : أبقوا الأول في الباحة وأمروهم أن يجلسوا جاثياً ، رأسهم إلى الأرض وظهرهم العاري مكشوف للشرطة ، وساقوني مع القسم الثاني إلى الحمام .

ودلفنا أكثر من خمسين شخصاً على عدد من المقصورات لا يتجاوز عدد أصابع اليدين ، وجاءنا الإيعاز بالدخول تحت الدشات ، فكنا ستة أو سبعة أو ربما أكثر كلنا تحت دش واحد ! وانصب علينا الماء البارد مرة واحدة ، لكن صوت السياط التي أخذت تجلد ظهور إخواننا الذين في الخارج أنستنا وكأنها طلقات الرصاص أحاسيس التجمد ، وأبدلت قشعريرة البرد التي سرت فينا رجفة الخوف من المصير المرتقب ! وجعل بعض أفراد الشرطة يدخلون وراءنا فينعمون علينا بلسعات الكرابيج مقدماً . وأمرنا بعضهم أن نخلع سراويلنا ونكشف عوراتنا زيادة لنا في الإهانة والعذاب .. ولم نجد بداً إلا أن ننفذ .. والزبانية بين ضاحك وساخر وشاتم .

وانتهى الأمر خلال خمس دقائق .. وخرجنا تتقاطر منا المياه لتتلقانا السياط التي سبق ونالت من ظهور الإخوة قبلنا . وزادنا ألماً وعذاباً أن عبرنا فوق مجاري الحمام المفتوحة فتعثر فيها من تعثر وارتطم بحوافها القاسية من كان له نصيب لم ينته من البلاء .. فلما انتهت الدفعة الثانية خلنا أن دهراً بأكمله انقضى .. ومضينا تدفعنا السياط والصفعات إلى المهجع مغمضي العينين

كما أتينا . وتدافعنا على الباب ككل مرة ، فتعثر من تعثر .. وشج من شج .. وارتض من ارتض . وكان الحمام حقيقة الأمر حمام دم بكل معنى الكلمة .

وارتمينا بعدما أغلق الباب علينا كالقتلى على الأرض . ما منا إلا من يئن أو يتأوه .. وليس فينا إلا جريح أو معنّى . لكن المأساة لم تكن انتهت بعد .. والمهزلة كانت تنتظر فصلها المضحك للختام . فما هي إلا دقائق حتى فُتِحَ الباب ، ودخل الشرطة فأبلغوا رئيس المهجع أن علينا أن ندفع أجرة الحلاقة والحمام .. فوراً وفي الحال !

وأتى الأخ ينتظر منا الجواب .. وليس لدينا من جواب إلا التسليم في كل مرة .. وتقدم من سَلِمَتْ نقوده في الأمانات فدفع .. واندفعنا بعدما هدأ الحال إلى حمام مهجعنا لنغسل ما كسا أجسادنا من دم وشعر وتراب ، فما كدنا ننتهي حتى كان اليوم قد انتهى .. وانتهت فينا كل ذرة من طاقة وجَلَد .. فارتمينا على بطانياتنا الرثة نلتمس ساعة نوم هادئ قبل أن تدهمنا مفاجأة جديدة .. أو تحل علينا من القوم نازلة لم تكن في الحسبان !

ولقد استمر نظام الحمام البئيس هذا مرة كل أسبوع حتى عام 1984 حيث صدرت الأوامر وقتها بأن يتم الاستحمام في حمام المهجع نفسه . وأما الحلاقة فاستمرت حتى عام 1986 حيث انتشر مرض اليرقان - كما سيأتي بأذن الله - فكان ذلك البلاء سبباً في رفع هذا البلاء !

من رحمات الله

ومرت أيام أخر .. نزداد اقتراباً من بعضنا وائتلافاً بمقدار ما يزداد الهم وتتنامى المعاناة . ومع تقادم الخبرة بدأنا ندرك كيف تمضي الأمور حولنا .. وتعلمنا أن الشرطة يتعاقبون على حراسة سطح المهجع . فصرنا ننتهز فرصة انشغالهم بالاستلام والتسليم لنتحدث بحرية أكثر أو نتحرك من غير خوف . ومع اعتياد المكان والحال بدأنا ومن نعمة الله علينا نسمع صوت الأذان الآتي من مدينة تدمر المجاورة . فلم يكن من أنيس لنا مثله أبداً . وكأنما أحس الزبانية بأثر هذه النعمة علينا ، فكان بعضهم إذا ارتفع الأذان علانا وأطل علينا من الشراقة وجعل يتبع كل تكبيرة بكلمة الكفر .. وكل تهليلة بمسبة فاحشة واستهزاء بالله تعالى . وكنا علاوة على الأذان تبلغنا حتى أصوات السيارات العابرة على الطريق في بعض الأحيان .. فنغتم من ذلك ونتحسر .. لا نتخيل كيف تسير الحياة طبيعية على بعد خطوات منا ونحن في هذا الجحيم لا يدري منهم بحالنا أحد !

ولقد كان من رحمات الله بنا أن أحضروا لنا في بدايات الأسبوع الثاني ممرضاً مجنداً طاف على المهاجع وسجل احتياجاتنا الضرورية من العلاجات . ووجدناه يحضر لنا بالفعل بعض ما طلبنا .. وكان أكثر ماكنا نريد مراهم الجروح والالتهابات .. فمن بين هذا الجمع من البؤساء

كـان ثمـة مـن هـو فـي أمـس الحاجـة لهـا قبـل أن يصـل هـذا المكـان .. مثلمـا كانـت الحاجـة إلـى العلاجات متجددة على الدوام لدوام الضرب الوحشي والتعذيب والتشنيع .

جروح وقروح

ولقد كـان من أكثر سكان مهجعنـا سوءاً في حالتـه الصحية الأخ نـديم منصـور الـذي حملتـه أنـا وجمال عيار ساعة وصولنا كما ذكرت . وكان المسكين قد أصيب أثنـاء اعتقالـه برصاصـة فـي ساقه وأخرى في يده . وكـان ثمـة أخ آخر هو هيثم مـلا عثمـان مصـاباً بالرصـاص أيضـاً فـي رجلـه . وهو أحد الإخوة السبعة عشر الذين هربوا من سجن كفر سوسة ثم اعتقل من جديد وأصيب أثناء ذلك . وتنقل الأخَوَان من فرع مخابرات إلى آخر حتى وصلوا تدمر من غير أن ينـالا من العلاج شـيء ! وكـان أمراً عجيبـاً أن ظـلا علـى قيد الحيـاة فعلاً . فالرصاصـات التـي مزقـت اللحم وهشمت العظـام استقرت هنـاك . وتقطعت كمـا يبدو أعصـاب المنطقـة فلم تعد الأعضاء تتحرك . ونمت العظام من جديد والتأمت بقدرة الله ولكن على غير وضعها السوي . ولـذلك فلم يكـن نـديم أو هيثم يقدران علـى السير مطلقـاً . وكنـا نتعهدهما بأنفسـنا فـي الحركـة والسكنة . ولم يكن أمامنا ساعة التنفس أو الحمام إلا أن نتركهمـا فـي المهجع بعد الاستئذان من الرقيب . فـإذا تـلاءم ورفض حسب المزاج كـان علينـا أن نحملهمـا حمـلاً . وظل المسكينان في معاناة دائمة حتى كان إعدامهما عام 1984 .

كذلك لم تكن معاناة الأخ حسين عثمان نتيجة تعذيبه بالكرسي الألمـاني أخف كما ذكرت . وكـان رحمـه الله دائم الاستلقاء منعدم الراحـة . ولـم يسلم بـرغم ذلك من التعذيب كمـا سيأتي .. حتـى اختاره الله إليه ونـال شرف الشهادة عام 1982 .

وأما بقية الإخوة ، ورغم أنهم كـانوا فـي حالـة أفضل أو إصـابات أخف ، إلا أن آلامهم لم تكن لتكف ، وجروح بعضهم التي خلفتها حفلات التعذيب الأولـى فـي فروع المخـابرات أو تلك التـي زادت عليها في حفل الاستقبال بتدمر لم تشف إلا بعد شهور . وزاد علينا القمل الـذي حملنـاه فـي أجسامنا من فروع المخابرات إلى تدمر ، فانتشر فـي المهجع وتفشـى بين الجميـع .. ولجأنـا إلـى نظام التفلية من جديد كإجراء وحيد نخفف منه من شر هذا البلاء !

كعبة الزبانية !

وبدأت نفوسنا تعتاد هذه الحياة القاسية يوماً بعد يوم . وجعلنا في حسابنا أمر التفقد ومـا يصـاحبه من عذاب الاستفتاح كل يـوم .. والتنفس والحلاقـة والحمـام . وجعـل الإخـوة الشبـاب الأصـحاء

يحرصون أن يقفوا من ناحية الشرطة ليفتدوا إخوانهم المسنين والضعفاء ويحمونهم من أن تطالهم سطوة الظالمين . وكان معنا عدد من المعتقلين ممن جاوزوا الستين والخامسة والستين ، أذكر منهم شريف البعث والحاج محمد غرير وكلاهما من إدلب ، وإبراهيم طوبل وعمر حيدر الذي توفي رحمه الله بالسكتة القلبية عام 1986 والرجلان من المعرة . كذلك كان معنا الحاج أحمد البربور من أريحا . وكان الزبانية يحرصون على تعذيب هؤلاء الرجال أكثر ويظنونهم لكبر سنهم ولإصابة بعضهم بالصلع الطبيعي أنهم من قيادات الإخوان ! فكنا نجنبهم التعرض للعذاب قدر الإمكان ، ونأخذ عنهم دورهم في سخرة الطعام . فينال الأخ المتطوع الجلدات واللطمات ويضحي بما قد يكون حياته ذاتها فداء لإخوانه .

وكان الأخ جمال رئيس المهجع قد قسمنا إلى مجموعات كما ذكرت ، فكان ذلك سبباً في ضبط المهجع وتقليل المشاكل مع الشرطة من جهة ، وعاملاً في تآلفنا وتعارفنا من جهة أخرى . حتى بتنا كأبناء أسرة واحدة يواسي بعضنا بعضاً ، ويساند أقوانا الضعيف فينا .. ويدخر كل منا وسعه للتخفيف عن أخيه . ولا أزال أذكر ممن كان في مجموعتي الأولى الأخ أبا رشيد حسين عثمان . وأخاً آخر من حمص اسمه أمجد طيارة . والأخوين إبراهيم أحمدو ومحمد طاهر مصطفى من أريحا .

وإذا كانت الأحداث المرة وتعاقب السنين قد أنستني من الأسماء والحوادث الكثير فإنه مما لا ينسى عن أحداث تلك الأيام وذكريات هؤلاء الإخوة المسنين يوم أن عرف واحد من الشرطة اسمه شحادة الذي ينتمي إلى طائفة النظام أيضاً أن الحاج أحمد غرير قد ذهب لحج بيت الله في يوم ما ، فمد الزنيم قدمه أمام الناس وقال لهم هذه هي الكعبة . وأمر الرجل أن يقبل حذاءه مثلما قبّل الكعبة هناك . ولم يكن للمسكين إلا أن يطيع خشية ما لا تحمد عقباه .

همجية التعذيب

وانقضى أسبوع آخر .. ودخلنا أسبوعنا الثالث على تلك الحال . وفوجئنا ضحى أحد الأيام بدفعة جديدة من السجناء تجاوز الستين تدخل إلى المهجع قادمين من حلب هذه المرة . يحضرني الآن من أسمائهم الإخوة رياض الشاوي وحسين ألطُنْجي وكلاهما من حلب . الأول مهندس مدني والثاني طالب ثانوي . وأحمد عنعن طالب هندسة مدنية ، وأحمد حمزة وهذان من مدينة الباب . وكان الأخير مدرساً . فوصل عددنا الكلي قرابة المائة والثمانين .. وأصبحت حصة كل منا في النوم شبراً وأربع أصابع وحسب ! فكان الواحد منا إذا أراد التحرك في الليل أيقظ بحركته أكثر أهل المهجع . ولو أحس الشرطي فوقنا بأدنى حركة بيننا في الليل خاصة كان ذلك كافياً ليعلّم من يشاء ويخرجه في الصباح التالي لينال نصيبه من القتل والتعذيب .

لكن وصول الإخوة الجدد كان نوعاً من التسرية المؤقتة لنا ، مثلما كان وجودنا من قبلهم عوناً لهم على تفهم الوضع وتعلم الأنظمة الجائرة تجنباً لأي مزيد من العذاب . وسرعان ما انضم القادمون إلى مجموعات السخرة والطعام .. وجعلنا نسمع منهم أخبار الحياة خارج هذه الأسوار .. ويسمعون منا ما وجدناه منذ وصولنا هنا .. فشغلتنا الأحاديث ونشطتنا .. ووثقت بيننا العرى وألفت بيننا . وكشفت لنا في نفس الوقت أوجهاً أخرى من جرائم النظام وممارسات مخابراته الوحشية ، وأطلعتنا على أساليب من التعذيب يمارسها أولئك الزبانية عافانا الله نحن منها وابتلى بها إخواننا في حلب . رأيت بنفسي نموذجين منها كان الأول هو الأخ حسين ألطنجي الذي استخدموا معه في فرع المخابرات بحلب الضرب المباشر بالبلطة على مشط قدمه لإجباره على الاعتراف السريع ، فكادت أن تقطعها ، وظل رحمه الله يتألم منها ولا يستطيع المشي عليها حتى إعدامه بعد عدة شهور . واستخدموا مع الآخر أسلوب الحرق بالمدفأة الكهربائية ، والتي بقيت آثارها محفورة على ظهره شاهداً على همجية هؤلاء الزبانية .. وكان طالباً اسمه مأمون كردي من حماة أعدم هو الآخر بعد مدة رحمه الله .

مع كتاب الله

انقضت أحاديث التعارف وروايات المعاناة وقصص الداخل والخارج واتجهنا قدر الإمكان إلى تنظيم أمور حياتنا بما يفيد . فالسجن الذي كتبه الله لنا يظل على فظاعته فترة انتقالية لا بد وأن تنتهي ، سواء بانتهاء الحياة أو بالفرج . وليس ثمة شيء نتزود منه أجلّ من كتاب الله تعالى . ولذلك دب فينا نشاط عجيب لحفظ أكبر قدر من القرآن الكريم ، حتى إذا شاءت إرادة الله ووافنا الأجل كان آخر عهدنا في هذه الدنيا مع كتابه الكريم . وسرعان ما نشأت بيننا حلقات الحفظ بالتلقي .. فلا مصاحف لدينا بالطبع نحفظ منها . ولذلك كنا نتبادل حفظ السور من بعضنا البعض ، فيجلس أحدنا إلى أخيه إذا هدأت الأمور وانتهت حفلات العذاب ليسمع منه ما يحفظ ، ويظل يردد وراءه الآية بعد الآية هامساً ويَعُدُّهُنَّ على سُلامات الأصابع . فإذا أنهى خمساً منهن وثبتهن في ذهنه عاد فأخذ خمساً تاليات . حتى إذا انتهى اليوم وحل الليل وهجع الخلق رأيتنا نتعاقب على الحمام خلسة فنتوضأ ونعود لنصلي ونحن مستلقين تحت البطانيات إيماء منفردين .. نعيد تلاوة ما حفظنا في النهار .

وعلاوة على ذلك وإذا سنحت الفرصة أخذنا نحاول أن نستفيد من كل علم يعلمه أخ بيننا ، أو رأي أو موضوع له فيه إطلاع . لكن ذلك ما كان يتم إلا بشكل فردي .. أو ربما بين أفراد المجموعة الواحدة وبمنتهى الحرص والحذر .

الكوليرا

ولم تكن بلاءات هذا المكان المريع لتتوقف .. فذات صباح في صيف عام 1981 استيقظنا على أصوات التقيؤ وصيحات الألم المكتومة في المهجع .. ووجدنا حالة من الإسهال الشديد أصابت الكثيرين بيننا . وأخذت العدوى تنتشر يوماً بعد يوم ، وجعل الإخوة يتساقطون من الإعياء داخل المهجع أو في وقت التنفس . وكانت الفاجعة بأنها الكوليرا قد سرت . ولم نلبث وقد استشرى الأمر أن وجدنا طبيب السجن محمد يونس العلي يمر على المهاجع ويسأل عن عدد المصابين ويسجل ذلك عنده . وبعد ساعتين أو ثلاث عاد الشرطة وطلبوا من رئيس المهجع أن يخرج هؤلاء المصابين جميعاً لينتقلوا إلى مهجع 13 في الباحة الثالثة فتحوه للمصابين . فخرج من مهجعنا وحده حوالي الأربعين . وأمضى الإخوة في العزل عدة أسابيع قدمت لهم إدارة السجن وقتها علاجات مباشرة خشية أن ينتشر المرض فيشمل الشرطة والسجانين أنفسهم . أو أن يتعدى حدود السجن فينتقل عبر المجاري التي كانت تتصل مع شبكة مجاري بلدة تدمر وتنتهي في حقول المزارعين لترويها !

لكن المثير في الأمر أن هذه الحركة ساعدت العديدين على الالتقاء بأقارب لهم أو أصدقاء كانوا في مهاجع أخرى والاطمئنان على أحوالهم . وكانت كذلك سبباً في وصول أخبار جديدة إلينا وتسريب أخبارنا إلى بقية الإخوة . ولقد بلغنا وقتها أن السجناء في بعض المهاجع اكتشفوا آثار إطلاق الرصاص وبقايا دم آدمي لا تزال موجودة على السقف والجدران من أيام مجزرة تدمر الكبرى في شهر حزيران من عام 1980 . لكن الأهم من ذلك بالنسبة لنا كان تمكن عدد منا من حفظ آيات وسور من القرآن الكريم لم تكن في مهجعنا . علاوة على انخفاض نسبة التعذيب واعتداءات الشرطة الذين باتوا يتجنبون الاحتكاك بنا خشية العدوى ! ولقد علمنا بعد عودة الإخوة أن وفيات حدثت بالفعل بين مصابين من مهاجع أخرى ، أذكر من أسمائهم الأخ ناصح شنيطي من دمشق . لكن لطف الله تعالى ورحمته كانت واضحة في هذه المحنة . وبرغم انعدام العناية الصحية اللازمة وقلة التغذية وسوء الأحوال فقد مرت الأزمة بأقل الخسائر وقد كنا نتوقع أن تودي بحياة المئات .

مهجع النساء

لم يطل المقام بنا كثيراً في تدمر حتى تأكد لنا أن هذا المكان الرهيب يضم بين جدرانه أخوات سجينات أيضاً خصصوا لهن غرفة المستوصف السابقة وحولوها إلى مهجع للنساء .

ولقد تأكد لنا الأمر أول مرة حينما استدعوا إلى التحقيق أخاً من مهجعنا اسمه بسام سفُّور من حمص كانت تهمته تأمين جواز سفر لبعض الأشخاص الملاحقين . ويبدو أن امرأة غير مسلمة اسمها أم طوني كانت قد باعته الجواز أو شاركت في عملية تزويره ثم اعترفت عليه . فلما

استدعوه للتحقيق في السجن نفسه واجهوه بها . واستطاع بعدما انتهى التحقيق أن يراهم يدخلونها غرفة المستوصف التي سجنوا فيها النساء . وفي مرة تالية وبينما كنا في التنفس استطعنا أن نلمح عدداً من النساء المحجبات في ذلك الجانب من الباحة فتأكد لنا وجودهن هناك . لكننا لم يكن ممكناً لنا أن نعرف عنهن أكثر أو أن نقدم لهن أي عون .

الفصل الثالث

الإعدام

واستيقظنا في يوم من تلك الأيام ننتظر أن نبدأ البرنـامج الذي اعتدنا عليه وتأقلمنـا معه إلى حد كبير .. وبدأنا نضب بطانياتنـا ونجمع العوازل من تحتهـا حين نـادى علينـا الشرطة من شراقة الباب فجأة وبشكل إيعاز :

الكل ضبوا لجوه ولا .

فسارعنا ونفذنا الأمر وتجمعنا كلنا في أقصى المهجع نستعيذ بالله من شر مـا خلق ! وإن هـي إلا برهة حتى بلغتنا من الباحة أصوات وضجيج غير مألوف .. وأحسسنا وكأنمـا هنـاك حمولـة من الخشب ترمى على الأرض .. والنوافذ عالية لا نستطيع أن نطل منها .. وبيننا وبين الباب مسافة لم نجرؤ أن نغـادر زاويتنـا ونسترق النظر من شقوق فيه خشية أن يرانـا الشرطة من الشراقة فوق المهجع فيعاقبونا بما نحن في غنى عنه .

لكن الجلبة استمرت .. وتتـابع صوت ارتطـام الخشب بـأرض الباحـة الإسمنتية .. ورأينـا ظـلال الشرطة على جدران المهجع تعبر من النوافذ العليا كالأشباح .. فشعرنـا بقلق وانقبـاض .. وبدأنا نتوقع شر الاحتمالات .. ونحسب أنهم سيدخلون الآن ويطلقون علينا النار كلنا كما فعلوا قبل أقل من عام في نفس المكان . ولم يطل بنا الانتظـار كثيراً .. فمـا هـي إلا برهـة حتـى سمعنا أصـوات التكبير تتعالى .. وسجناء ينادون أسماءهم ويقولـون أخوكم فلان يوحد الله . ومن بين هؤلاء لا أزال أذكر اسم الأخ محمد ناصر البيك من حمص ، الذي بلغتنـا تكبيراتـه وعبارتـه الأخيرة يقول :

أخوكم محمد ناصر البيك يوحد الله .

فعرفه إخوة من مدينته في المهجع معنا . وأيقنا أنها عمليـة إعدامات تجري الآن . وأن مجموعة من السجناء يعلقون على المشـانق بالفعل . فاحتبست أنفاسنا جميعاً .. واختنقت فينـا العبرات .. وتجمدت على ألسنتنا العبـارات .. ولـم تنقض أكثر من عشر دقـائق حتـى خفتت الأصـوات .. وسكنت الحركة .. وبدأت الأمور خارج المهجع تعود إلـى طبيعتهـا بالتدريج .. لكن التفقد تـأخر وألغي التنفس في ذلك اليوم .. وأحضر الشرطة الطعام من غير أن يشيروا إلـى ذاك الـذي حدث بشيء .

وأغلق الباب علينا بعد ذلك لتلفنا دوامة القلق والتساؤلات . فها نحن الآن أمام الموت وجهاً لوجه .. والإعدامات التي كنا نسمع عنها ونتخوف منها حدثت على بعد خطوات منا وحسب .. وإذا كان شهداء المجزرة الكبرى قبل عام قد قضوا نتيجة نزوة كما ظن البعض أو ثأر بعد محاولة اغتيال رأس النظام ، فإن ما نراه الآن ونسمعه يجعلنا نحس أن الأمر منظم في الحقيقة ومقرر ، وأن هناك برنامجاً لتصفية السجناء إذاً . ولم يعد مستبعداً بعد الآن أن نقف أنفسنا هذا الموقف وتلتف حبال المشنقة على أعناقنا نحن بعد حين !

تساؤلات .. وتأويلات

وأخذت التساؤلات تغادر السرائر بالتدريج وترتسم على شفاهنا تباعاً ، فتنتقل من فرد إلى آخر ومن مجموعة إلى غيرها .. وترسم معها معالم مختلف الناس الذين ضمتهم المحنة وجمعهم هذا المكان الرعيب . ورغم أن الحادثة هزتنا جميعاً إلا أن أكثر من اهتز حقيقة كان أولئك الذين لم يكونوا أهل انتماء بالأصل ، وجرفتهم المصلحة أو الحماسة فشاركوا بعمل ما وألقي القبض عليهم واعتبروا في منزلة واحدة كالمنظمين والمسلحين .. ومن هؤلاء كان بضعة نفر من المهربين وتجار السلاح .. ممن لم يكونوا مهيئين نفسياً لا للمحنة ولا للإعدام والموت ! وانتشرت بناء على حال كل فئة تأويلات المتأولين وتحليلات المحللين .. فاجتمع رأي البعض على أن الإعدامات إنما تنفذ في المسلحين الذين شاركوا في عمليات حقيقية وأدينوا فيها .. وأما المنظمون من غيرهم فمثلهم كمثل تلاميذ المشايخ لا خطر منهم ولا تثريب عليهم ! وذهب نفر إلى أن المسلحين أنفسهم قسمان : قسم تسلح ولكنه لم يَقْتُل أو يقاتل .. وهؤلاء أقرب للفئة السابقة إذاً . وفئة أخرى قاتلت وقَتَلت وثبت عليها العمل العسكري .. وهؤلاء هم الذين تنفذ فيهم الإعدامات وحسب .

وأحدثت هذه التقسيمات خلخلة غير منتظرة في الصفوف .. وظهرت بسبب هذه التخمينات مشادات وأخذ ورد .. ونادى العقلاء بأن الأمور بيد المولى سبحانه والأعمار مقدرة في علمه الأزلي لا تنقص ولا تزيد .. وقال الإخوة الذين أدينوا بالعمل العسكري بأن الشهادة شرف لكل مسلم .. فإذا كانت قد دنت فمرحباً بها .. ولكننا هنا جميعاً في نظر النظام أعداء .. وهم لا يفرقون بيننا لا في عذاب ولا في إعدام .

وحل الشتاء !

ومضت الأيام وحل الشتاء .. شتاء الصحراء الذي لا يرحم .. ونحن في مهجعنا لا نملك إلا بطانياتنا البالية ذاتها ، والنوافذ والشراقات فوقنا مفتوحة على حالها ، ويا بؤس من بات ليلته

تحتها .. ويا سوء حظ من تأفف من مطر السماء حتى ولو انصب عليه طوال الليل ! ولذلك وبسبب هذه البرودة والرطوبة وسوء التغذية تفشت بيننا أمراض الزكام والروماتيزم والتهابات المفاصل .. ثم لم يلبث أن ظهر السل فينا بعد أقل من عام .. أو أنه كان قد ظهر بالفعل ولكننا لم نكتشفه إلا وقد استشرى وعم !

وهكذا عدنا إلى برنامج المعاناة نفسه .. أسرى جدران المهجع 26 نتقلب بين عذاب وعذاب .. وتفقد وتنفس .. وحلاقة وحمام .. ولكننا كنا نغالب ذلك كله بحفظ كتاب الله وتلاوة آياته ما وسعنا الجهد . ولم يكن ذلك هيناً في هذا الجو العصيب ، لكننا ثابرنا بحمد الله وتابعنا . ولم يكن فقه السجون قد تبلور لدينا في تلك الفترة بعد ، فكان بعضنا يخاطر بالقيام للوضوء مع كل صلاة رغم أن التيمم كان مرخصاً لنا . وكان احتمال أن يكتشف الشرطة حركتنا في الليل خاصة معناه عذاب محقق في الصباح التالي ربما كلف المرء حياته ! كذلك كنا نغتسل من الجنابة بالماء البارد مع برودة الجو رغم أن التيمم كان وارداً أيضاً ، ونظن أنه لا حل لنا إلا بذاك . لكننا أخذنا من بعد نتتبع الرخص الشرعية ونخفف عن أنفسنا قدر المستطاع . ولم نعدم أن نجد بيننا من ظل يتشدد ويصر على الاغتسال وعلى الوضوء في كل مرة وعلى أداء الصلاة وقوفاً والمجاهرة بالصيام حينما منع في السنوات اللاحقة ، برغم المخاطر واحتمالات الأذى له وللآخرين .

محكمة !

وذات يوم .. وكان قد مضى على حادث الإعدام بضعة أسابيع دخل علينا الشرطة وسألوا عن أسماء بعينها ، ولم نكن قد عهدناهم ينادون أحداً باسمه من قبل . لكن أياً من هذه الأسماء لم يكن بيننا . وتكرر الأمر مرة بعد مرة .. فأحسسنا أن ثمة شيئاً مريباً يدور .. حتى كان صبيحة يوم جديد ، حينما دخل الحرس ونادوا مجموعة أسماء من مهجعنا هذه المرة وقادوهم معهم . وكانوا قرابة الخمسة عشر شخصاً كلهم من حمص .

ومضت حوالي خمس أو ست ساعات أحضر الشرطة خلالها الفطور والغداء معاً وأغلقوا الباب علينا من غير تفقد أو تنفس .. فلما عاد الإخوة وسألناهم أين كنتم قالوا في المحكمة . فتيقنا ساعتها أنها جد إذاً . وعلمنا منهم أن أحكاماً صدرت بالإعدام على أكثرهم . وسرعان ما وجدنا الإخوة المحكوم عليهم بالإعدام قد تغير حالهم .. وانصرفوا عن كل شؤون الدنيا انصرافاً تاماً .. وتوجهوا إلى الله سبحانه بكلياتهم يهيئون أنفسهم للقاء رب العالمين حتى كأن أحدهم لم يكن من أهل هذه الدنيا أبداً . ولم ينقض شهران بعدها حتى طُلِبَ هؤلاء الإخوة للإعدام .. فكانت أول كوكبة من أهل الجنان إن شاء الله نودعهم من مهجعنا .. سائلين الله تعالى أن ينتقم لهم ويتقبلهم ويجعلهم في أعلى عليين .

مرحباً بلقاء الله

دخل الشرطة صبيحة ذلك اليوم المرير وقرؤوا أسماء المطلوبين فيما كانت إجراءات نصب المشانق وتهيئة مراسم الإعدام تتم في الباحة أمام مهجعنا مباشرة . وكانت مفاجأة لنا أن عدداً ممن تليت أسماؤهم كانوا قد خرجوا إلى المحكمة وقتها ولم يبلغونهم كالآخرين أنهم حكموا بالإعدام . فلما سمع الإخوة أسماءهم وأيقنوا المصير تراكضوا إلى الحمام فتوضؤوا ومدوا شيئاً هناك وصلوا عليه تخفياً من الشرطة خشية علينا نحن لا على أنفسهم . وخرج الركب أكثر من عشرة كأنهم غير الذين عرفنا كل هذه الأيام .. مطمئني النفوس .. مشرقي القسمات .. مقبلين بكل جوارحهم على الله راضين بقضائه . واستطاع بعضنا أن يعانق عدداً منهم .. وخرج الآخرون حتى من غير كلمة وداع . لا زلت أذكر من أسماء تلك الدفعة الإخوة حسن الصغير ، وعبد الغني الدباغ ، وبسام كالو وكلهم من حمص . ولا زلت أذكر كأنه الساعة كيف أن الأخ بسام استيقظ صباح ذلك اليوم مبكراً وقال لإخوة حوله : رأيت اليوم مناماً . سألوه : خيراً إن شاء الله .. ماذا رأيت ؟ قال : رأيت قول الله تعالى في القرآن الكريم (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين) . ولم يلبث أن نودي للإعدام رحمه الله بعد ساعة أو أقل ، فأحسسنا أن الله سبحانه حقق له منامه وتقبله وغفر له وأنزله الجنان إن شاء الله .

أرجوحة الشهداء

وأقفل الجلاوزة الباب .. وساقوا الإخوة أول الأمر إلى مهجع في أقصى الباحة يسمى "الورشة" . وعلمنا من بعد أن سليمان الخطيب يأتي بنفسه ليتأكد من الأسماء والأشخاص ويتلو عليهم ديباجة الحكم ، ويأتي معه أو يتبعه مدير السجن الذي كنا نحس بقدومه من صوت المساعد يقدمه باللازمة المعتادة قائلاً :

است.....رح .. استع......د . الباحة جاهزة للتفتيش سيدي اللواء أو سيدي العقيد .

وبعد هذا الإجراء يبدأ الشرطة بسوق الإخوة إلى المشانق تباعاً . وعندما بدأ ذلك هرعت من فوري إلى شق صغير في باب مهجعنا فرأيت المشانق منصوبة على امتداد الباحة .. والإخوة الآن وقد باتوا على حافة الردى يكبرون بأعلى صوتهم ويهللون .. ويساق أحدهم بعد الآخر مغمض العينين مكبل اليدين إلى المشنقة التي انتصبت على قوائمها الثلاث .. يتدلى منها حبل كحبال الغسيل البلاستيكية .. يخالف في هذه المواصفات وتلك الوضعية أبسط الشروط التي يفترض أن تتوفر في مشنقة الإعدام المخصصة للمجرمين ! ورغم ذلك يؤمر الأخ بالجثو أمام المشنقة دون أن يدري ماذا أمامه ، وعن جانبيه اثنان من "البلدية" ينتظران الإيعاز من الشرطي الذي يقف في مقابل الأخ . فإذا أشار إليهما تناولا حبل المشنقة فطوقا به رقبة

السجين .. ثم تأخرا إلى الوراء فأمسكا بقائمة المشنقة . ولا يلبث الشرطي أن يصدر الإيعاز الأخير .. فيشد "البلدية" الخشبة .. وتنتصب المشنقة .. فيرتفع الأخ في الهواء بلمحة عين .. ويشهق شهقته الأخيرة وتزهق روحه خلال لحظات . فإذا بدت منه حركة تدل على احتمال استمرار الحياة فيه تقدم عنصرا "البلدية" ثانية فجذبا الأخ وتعلقا به حتى يشتد إطباق الحبل على رقبته إلى أبعد مدى .

ولا يلبث الطبيب يونس العلي أن يتقدم فيجس النبض ، ويتأكد من الوفاة .. فتعاد المشنقة إلى وضعها ، ويفك الحبل عن رقبة الشهيد .. ويرمي به القتلة جانباً بدم بارد ، فيما يعد الشرطة الأخ التالي للإعدام . حتى إذا اكتمل العدد ونفذت الجريمة وتكومت الجثث ، دخلت الساحة شاحنة عسكرية ، وتقدم "البلدية" فحملوا أجساد الإخوة واحداً بعد الآخر وقذفوهم فيها .. لتمضي إلى حيث لا يعرف بمصيرهم أحد إلا الله . وفي هذه الدفعة قدرت أن أكثر من خمسين أخاً قضوا نحبهم .. نحتسبهم في عداد الشهداء الأبرار إن شاء الله .

العزاء

غادر الإخوة إلى لقاء الله ، وبقينا نحن في كربتنا ووحشتنا تلفنا حالة من الكآبة خانقة ، والناس وكأن على رؤوسهم الطير .. ليس لنا إلا العبرات الحرى نطلقها بصمت وألم .. والتضرع إلى الله نرسله خافتاً مرتعشاً مع الزفرات .

وغاص كل منا في خواطر شتى .. فهؤلاء الذين كنا نأكل معهم قبل ليلة خلت .. ونصلي وإياهم الفجر قبل برهة . هؤلاء الذين كنا وإياهم في سباق على حفظ كتاب الله .. نسمع منهم أو يسمعوا لنا . وربما كان واحدهم قد بات ليلته الأخيرة بجانبنا ، أو أرسل آخر ابتسامة له من وجهه الطلق وغادر وتركنا . هؤلاء الذين نمت بيننا العلاقة عن غير سابق معرفة من قبل في أحلك الظروف وأقساها .. شهرين أو ثلاثة نتناوب على تلقي العذاب ومواجهة الهول معاً .. فكنا على قصر الأيام أكثر من إخوة وألصق من أشقاء . هؤلاء جميعاً خرجوا من بيننا ولن يعودوا أبداً . وغادروا الدنيا ولن نلقاهم إلى يوم الدين .

وترتد الخواطر إلى ذواتنا سريعاً ، ونبدأ نسترجع شريط حياتنا نحن الذين لا نزال أحياء . من طفولتنا البريئة .. إلى شبابنا الذي ما أن بدأ يزهر فينا حتى اقتطفته يد الظلمة من غير ما إنذار . ويتجه الحوار في ذواتنا إلى المستقبل الآتي .. وأي مستقبل ذاك والمشانق ها هي لم تُحَلَّ حبالها بعد ! وتختلط فينا مشاعر الشفقة بالشوق .. واللوعة بالخوف .. والإحباط بالرجاء . ولا نجد في خاتمة المطاف ما نعزي به أنفسنا ونواسي جراحنا ونخفف من هول المصيبة علينا إلا الالتجاء إلى الرحمن الرحيم ، والرجاء بأن يكون ذلك في سبيله فيقبلنا في الآخرة ويعفو عنا .

مع كتاب الله

وترانا نهرع من جديد إلى كتابه جل وعلا أنيسنا وبلسم جروحنا ننكب عليه ونلتجئ إليه . ولقد أكرمنا سبحانه بعد أسابيع لم تطل بأخ حافظ لكتاب الله قدم إلينا مع حوالي خمسة عشر أخاً من دمشق كلهم من جماعة مسجد زيد بن ثابت . والأخ الحافظ اسمه محمد صنوبر من بلدة جديدة الذيباني قرب دمشق . فكان سرورنا به أكبر من أن يوصف . وأقبلنا نتلقى منه السور والآيات ونحفظها . وكنت أنا والأخ هيثم عثمان برغم إصابته الشديدة نحفظ معاً .. ونراجع ما حفظنا باستمرار .. حتى بات كتاب الله شغلنا الشاغل . ومن شدة همتنا وعزيمتنا أذكر أنني بتوفيق الله حفظت سورة الأنعام كلها في أربعة أيام .. وكنت من قبل أن أعتقل أحفظ جزء عم وبعضاً من الجزء التاسع والعشرين وحسب . فلما رأينا الإعدامات وقدرنا أن المنية قد دنت أحببنا أن ننهي الحفظ فنلاقي به وجه ربنا . وفي عام 1982 أنهيت والأخ هيثم ولله الحمد حفظ القرآن الكريم كله . وكنا أول من ينهي الحفظ من مهجعنا بفضل الله .

مؤامرة !

ومرت الأيام .. وفوجئنا بواحد من الشرطة العسكرية صبيحة يوم تال يطلب أبا رشيد ويمضي به إلى حيث لا ندري . وعندما عاد بعد بضع ساعات كان في حالة يُرثى لها من أثر التعذيب . ولم يكن من طبع أبي رشيد الإكثار من الحديث ، لكنه خصني رحمه الله بذكر ما جرى بحكم معرفتي السابقة به وصلتي الوثيقة معه . ووقتها أخبرني أن ضباطاً من المخابرات أتوا للتحقيق معه حول علاقته برئيس الأركان حكمت الشهابي الذي حضر إلى فرع المخابرات من قبل - كما ذكرت - وحاول دفعه للاعتراف ووعده بالمساعدة . وكانت إعادة التحقيق مع السجين من أصعب الأمور عليه وقد ظن أنه انتهى من هذه المرحلة وطويت أوراق ملفه . ورغم أن الشهابي حاول حقيقة الأمر أن يوقع أبا رشيد ويعين المخابرات عليه إلا أنه رفض الاعتراف بأمر يضره . ولعب المحققون لعبة الإغراء ثانية معه ووعدوه بأن ينقذوه من الإعدام إذا اعترف بوجود صلة للشهابي معه فأبى . وعذبوه على ذلك أشنع العذاب فأصر على موقفه .. وأحس أن ثمة مؤامرة داخل أجنحة النظام تريد استغلاله لتصفية خصومات بينهم .. فأبى بنزاهة المسلم أن يظلم حتى عدوه، وتحمل في سبيل ذلك أشد العذاب.

اليوم المقدور

وانقضت شهور أخر . وتحسنت صحة أبي رشيد والتأمت جراح حفلة التعذيب تلك .. ومضت حياتنا على نفس المنوال لا نخرج من هم حتى نقع في هم أشد .. ولا ننجو من تعذيب حتى

يطولنا حفل تعذيب أشنع .. وفي شهر تشرين الأول أو تشرين الثاني من عام 1981 تم استدعاء دفعة جديدة للمحكمة الهزلية التي كانت أحد فصول التعذيب النفسي والجسدي معاً . وخرج في هذه الدفعة أبو رشيد ضمن حوالي أربعين أخاً من مهجعنا . ورغم أنه رجع من غير أن يبلغونه بالحكم إلا أنه أدرك أن الأمر انتهى .. واستشف ذلك من كلام سليمان الخطيب الذي تربع على كرسي القضاء جوراً وظلماً .. خاصة وأنه عاد وألح عليه لتوريط الشهابي .. ووعده بإنقاذه من الإعدام إن فعل .. وأصر أبو رشيد وقتها على الرفض مهما كانت النتيجة .

وعاد أبو رشيد من المحكمة وقد نوى أن يبدأ الصيام من ساعتها وإلى أن يلاقي ربه . وقال بأنه لن يفطر حتى يخرج إلى الإعدام . وعندما حل ذلك اليوم المقدور بعد قرابة الشهرين كنت قد رفعت له شاياً وبعض الطعام من وجبة الفطور ليتناولها عند الغروب . فلما دخلوا ونادوا على أسماء المطلوبين للإعدام من دفعته لم يذكروا اسمه .. وتدافع الإخوة لوداع الأحبة وأغلق من ثم الباب .. وبينما نحن نترقب ناداني أبو رشيد رحمه الله وقال لي :

أخي أبو سليم .. أراني اليوم متعباً .. هات ناولني الشاي والطعام لأفطر .

قلت له : هاك وتوكل على الله .

ووالله الذي لا إله إلا هو ، لم يرشف أبو رشيد من الشاي رشفة وبدأ بالثانية حتى فُتِحَ الباب من جديد ونادى الشرطي فينا :

حسين رشيد عثمان .

حاضر .

رد أبو رشيد وكأس الشاي لا يزال بين شفتيه .. فأيقنا سبحان الله كيف أن رزق الإنسان المقسوم لا بد وأن يبلغه .. وأنه كان لا بد وأن يأخذ رشفتي الشاي هاتين لا تزيدان ولا تنقصان !

ولم يلبث أن قفز رحمه الله إلى زاوية من زوايا المهجع وبدأ يخلع عنه ملابسه وهو يكبر ويهلل .. وحينما لم يبق عليه إلا الشورت والشرطة على الباب يكادون يجنون مما يفعل ألقى إلينا بكل ما كان يرتدي لنستفيد منه .. وخرج إلى الإعدام رحمه الله . ولم أستطع هذه المرة التلصص من ثقب الباب بعد الذي حصل . وسرعان ما انتهى تنفيذ الإعدام ، ودخل الشرطة علينا فأخرجونا إلى الساحة وأشبعونا جلداً ولطماً حتى يمسحوا عنا أي أثر إيجابي تركته فينا تكبيرات أبي رشيد رحمه الله .

أحداث حماة

وحل عام 1982 ونحن بين أيدي الظلمة تمضي بنا الأمور من سيئ إلى أسوأ . ولم تلبث أن انفجرت الأحداث في حماة من غير أن نعلم بها بالطبع . لكننا تلقينا آثارها السلبية داخل السجن ورأينا الأهوال وقتها دون أن ندري بما يجري .

فابتداء من شهر شباط اشتد التعذيب نوعاً وكماً .. وبدأ ضحاياه يتزايدون باستمرار .. حتى أن واحدنا كان إذا حل دوره في سخرة الطعام وأراد الخروج لتناوله من باب المهجع قرأ الفاتحة ووضع في حسبانه احتمال أن تكون آخر سورة يتلوها قبل أن يموت ! وبلغتنا أنباء عدة عن إخوة قتلتهم ضربات تلك العصا الغليظة التي كانوا يهوون بها على رأس السجين مباشرة ولا يبالون . وفي نفس الفترة ارتفعت نسبة المحكوم عليهم بالإعدام حتى كادت أن تشمل 98% من كل دفعة تخرج للمحاكمة . وأصبحت الأحكام تنفذ كل يومين بعد أن كانت من قبل ثلاث مرات في الشهر على الأغلب . ووقتها كان إعدام أبي رشيد ودفعته رحمهم الله .

احتياطات !

وذات يوم ، وفي دفعة من دفعات الإعدام تلك ، طلب الزبانية أخاً من مهجعنا 26 للإعدام اسمه عبد الكريم غانم من الزبداني كان طالباً في كلية الهندسة بدمشق . فلما سمعنا الخبر اندفعنا نودع الأخ وقد تفجرت من مآقينا الدموع . فوجدناه رحمه الله يقف في وجوهنا شامخاً راضياً يقول لنا :

علام تبكون ؟ ابكوا على حالكم أنتم .. أما أنا فخلاص ارتحت من هذا العذاب .

ومما هو جدير بالتسجيل هنا أنه وأثناء هذه الموجة الطاغية من العنف والإجرام بلغنا ذات مرة أنهم أخرجوا دفعة من السجناء للإعدام فتمكن أحد الإخوة من بينهم من الإفلات ، وقام بضرب الجلادين ما وسعه الجهد قبل أن يطبقوا عليه ويعيدونه إلى حبل المشنقة . وبعد الحادثة اقتحموا كل المهاجع وأذاقونا كلنا قتلة من أشد ما رأينا خوفاً من أن تولد حادثة الأخ فينا نوعاً من أحاسيس التمرد والعصيان . ومن وقتها بدأ الشرطة يأخذون احتياطات أشد أثناء الإعدامات .

العميل !

تم اعتقالي مثلما ذكرت في البداية في الشهر العاشر من عام 1980 بعد أن انتقلت صلتي من أبي الفرج إلى يحيى الشامي . ورغم التعذيب الفظيع الذي نلته في أقبية المخابرات العسكرية

فإن الله ثبتني ولم أعترف على يحيى أو أي شخص آخر . لكنني فوجئت مع اشتداد موجات القتل والتعذيب في الشهر الثاني من عام 1982 بخبر استشهاد يحيى في سجن تدمر . ثم لم تلبث الأقدار أن جمعتني مع إخوة من هنا وهناك التقوا يحيى في مراحل محنته المختلفة وعرفوا قصته .

ولقد تم اعتقال يحيى ابتداء بعد اعتقالي بزمن غير طويل . وكان ذلك حينما حضر يحيى إلى موعد مع شخص يسمى عبد الكريم رجب كان طالباً من حماة يدرس الطب في دمشق تمكنت أجهزة الأمن من تجنيده لصالحها واستفادت من علاقته مع شباب الإخوان ومعرفته بالكثير منهم أيما فائدة . ولا أزال أذكر كيف كان عبد الكريم هذا يحوم حولنا بشكل دائم من خلال معرفته بإخوة آخرين ، ويكثر من الأسئلة والاستفسارات بسبب ومن غير سبب . ولقد أوقع هذا العميل كما تأكد لي عدداً كبيراً من الإخوة بالفعل ، وتمكن من كشف العديد من قواعد المجاهدين في دمشق خاصة . وكان نشاطه في قمته بين صفوف الإخوة الذين توافدوا من خارج سورية إلى دمشق لتشكيل التنظيم الوليد الذي كان أبو الفرج أبرز قادته .

وهكذا وجد يحيى نفسه وسط عناصر المخابرات يطبقون عليه وعلى عبد الكريم عند المسجد الأموي ويقتادونهما إلى فرع التحقيق العسكري ، ليقاد يحيى منه إلى تدمر بعد انتهاء التحقيق معه ، وأطلق سراح عبد الكريم رجب ليستكمل مهمته التخريبية بين أفراد التنظيم .

ولقد بلغنا لاحقاً أن المجاهدين في حماة تمكنوا من كشف عبد الكريم واستدراجه إلى كمين محكم ، فاعتقلوه وحققوا معه وأخذوا منه اعترافات كاملة . وتم إعدامه بعد ذلك جزاء خيانته .

ولم ألتق يحيى في تدمر من بعد . لكنني التقيت من عاصره وعاش في المهجع معه . وبلغني أنهم في يوم من أيام شهر شباط عام 82 حينما كانت أحداث حماة في ذروتها استدعوا يحيى إلى الذاتية للتحقيق معه ، وطلب المحقق القادم من فرع التحقيق من يحيى أسماء محددة ومعلومات لم تكن لديهم . فأبي يحيى ورفض . فأمر المحقق بالدولاب أن يُحْضِرَ وأنزلوا يحيى فيه وانهالوا عليه ضرباً وقتلاً في باحة الذاتية ثم توقفوا . فلما سأله المحقق عن الأسماء والمعلومات أصر على الإنكار . فأمر بتجريده من ثيابه إلا الشورت وأعاده إلى الدولاب . وعاد الضرب الوحشي ينهال عليه حتى أن واحداً من أظفاره طار من قدمه ووقع قريباً من سجين آخر كان ينتظر دوره في التحقيق في الباحة ذاتها . ولقد التقيت هذا الأخ وهو لا يزال يحتفظ بالظفر معه !

واشتد الضرب وانهالت الخيزرانات والعصي على قدمي يحيى وبقية جسده حتى أغمي عليه . فأمر المحقق الزبانية أن يشنقوه . ولم تكن المشانق جاهزة يومها ، فسحبوه حتى وصلوا به أمام باب مهجع 5-6 وقام الرقيب فيصل كحيلة والشرطيان سمير كوشري وشحادة - حسبما وردنا من شهود عيان - فلفوا حبلاً حول رقبة الأخ يحيى وشدوه بين أيديهم وهو لا يزال رحمه الله مغمى عليه حتى أزهقوا روحه !

مفاجأة !

ومما لا أزال أذكر من قصص الإعدامات المؤثرة - وأياً منها لا يؤثر في صم الحجر ! - قصة طبيب أسنان من حلب من بيت قره علي كان معتقلاً مع عديله . ولقد تم الإفراج عن هذا الأخير بعد واسطات شديدة كما يبدو ، وبقي الأول ينتظر ويرجو .

وفي صبيحة يوم من تلك الأيام التعسة نودي اسم الأخ فظن أن إذْنَ إخلاء سبيله قد تم . وأنه سيغادر الآن للقاء أهله من جديد . وكان المسكين يرتدي حين اعتقاله طقماً سارع حينما سمع اسمه فارتداه . وأخرج ساعته الذهبية فارتداها أيضاً . وجعل ينفض عن كتفيه الغبار ويحاول أن يمشط شعره ويحسن من هيأته وكل الظن أنه خارج إلى الحرية الآن . فلما خرج كانت المشنقة في انتظاره حقيقة الأمر . وكانت صدمة لنا جميعاً بقيت تؤرقنا ردحاً من الزمان .

الجرب

وطالت المحنة كل أوجه هذه الحياة المرّة . فمع ازدياد العذاب والإعدامات انخفضت كمية الطعام المقررة للسجناء رغم أنها لم تكن تكفي لتقيتنا بالأصل . وصارت إدارة السجن تتعمد قطع الماء عنا حتى أننا عانينا خلال صيف ذلك العام شهراً كاملاً من غير ماء . وكان موردنا الوحيد عن طريق بيدونات يملؤها الشرطة لنا وقتما شاؤوا وبالعدد الذي يريدون . وقتذاك عمت القذارة المهاجع غصباً عنا وباتت رائحتها لا تطاق . ولم يلبث أن تفشى الجرب بيننا وانتشر انتشاراً كبيراً كنت أنا نفسي واحداً من ضحاياه .

والجرب كما هو معلوم مرض جلدي يصيب الإنسان بحكة شديد في جلده سرعان ما تؤدي إلى تورمه وتقيحه .. وليس هناك مكاناً محدداً يكتفي به هذا الداء . فمن الممكن أن يصيب الرجلين واليدين والصدر والظهر والمحاشم ذاتها . وعلاوة على الألم الشديد الذي يسببه الجرب فإن انتقاله بين الناس المتجاورين أمر محتم . ولو لم يعالج المصاب فقد يموت من المرض . ولقد حدث ذلك في مهجعنا 26 الذي انتشر الجرب فيه مثلما انتشر ببقية المهاجع . ولا أزال أذكر كيف دهم هذا المرض أخاً من دير الزور اسمه عبد الكريم الصالح ، فالتهب جلده كله وانتفخ ، وظل يعاني قرابة الشهر يصيح من شدة الألم وليس بيدنا شيء نقدمه لنخفف عنه إلا الدعاء . وعندما أبلغ رئيس المهجع الشرطة بحاله وكرر عليهم البلاغ لم يزيدوا عن أن أمروه أن يكف عن الشكوى وأن يتركه في المهجع ليموت !

لكن تزايد الإصابات وانتشار المرض في المهاجع الأخرى جعل إدارة السجن بعد حين تتنازل وتحضر للمصابين دواء الجرب . وتم تعيين مسؤول صحي لكل مهجع من السجناء أنفسهم تكون مسؤوليته تقديم تقرير بالحالة الصحية إلى طبيب السجن حتى لا يضطر ذاك إلى فحص

المرضى بنفسه والتعرض لاحتمالات الإصابة بالعدوى منهم ! وفي هذا السياق عُيِّنَ الأخ الطبيب قاسم موسى مسؤولاً صحياً لمهجعنا . ثم لما تزايدت الحالات أكثر فتحوا للمصابين مهجعاً خاصاً كما حدث أيام الكوليرا ، لا رحمة بهم بالتأكيد وإنما خشية أن تنتقل العدوى إليهم . ورغم ذلك فقد مات بسبب الجرب من مهجعنا وبقية المهاجع الأخرى عدد غير قليل من الإخوة ، وقدر للأخ عبد الكريم الصالح أن يتعافى بالتدريج ، حتى إذا شافاه الله بعد حين أتاه النداء ، وسيق مع دفعة من دفعات الإعدام إلى الردى رحمه الله .

من سجل الضحايا

وكان الممرض وطبيب السجن قد توقفا عن الحضور للمهجع قرابة الخمسة أشهر خلال أحداث حماة وبعدها ، مما ضاعف الإصابات وأسرع في انتشار الجرب . وانتشرت معه أمراض أخرى لم نستطع أن نعرف أسبابها أو نوعيتها بالتحديد . فكنا نحار في أمرنا ونفعل ما بوسعنا لمساعدة المصابين . ولكم كان الإخوة يتسابقون لفداء إخوانهم المرضى من أي عذاب أو جهد وإيثارهم بحفنة الطعام المخصصة للواحد منهم . لكن ذلك لم يكن كافياً لوقف المرض أو إنقاذ المصابين . وقضى عدد من الإخوة نَحْبَهُم فريسة الأمراض والأوبئة فبلغوا قرابة الستة عشر ، لا زلت أذكر منهم كمال أندورة ومأمون الذهبي من دمشق . وهشام مجندف وبسام الهاشمي وسامي وحود من حمص .

وكان أول من مات بين أولئك جميعاً معتقل من قرية صوران قرب حماة اسمه عبد العزيز عوض السالم . أصابه السل كما يبدو حتى أصبح يبصق الدم . وعندما أخبر رئيس المهجع أبو الفضل الرقيب أن لدينا مريضاً في حالة خطرة أجابه بالحرف الواحد :

ولا .. بس يموت دق الباب !

وبعد شهرين من المعاناة وبعد ظهر أحد الأيام اتكأ الأخ على صدر شقيق له كان سجيناً أيضاً وأخذ يذكر الله ويردد الشهادتين حتى لفظ آخر أنفاسه رحمه الله . فلما تأكدنا من وفاته طلب شقيقه من الحضور أن يغسلوه قبل أن نخبر الشرطة بالأمر . لكن الإخوة خافوا أن تصيبهم العدوى أو أن تنزل بهم من الشرطة بلوى . فلما لم يتقدم أحد رأيت أن الأمر لا بد وأن يحسم . وتوكلت على الله وتقدمت . وأدخلته الحمام وغسلته وحدي . ومن يومها تعلم الإخوة علي وأوكلوا إلي هذه المهمة ما دمت فيهم . فغسلت كل الذين ماتوا من بعد ذلك في المهجع . بعدها قرع أبو الفضل الباب وأخبرهم بوفاة الأخ . فلم يزيدوا عن أن طلبوا منه أن يخرجه إلى الخارج . فتعاونت معه وحملناه ، وعدت أنا وبقي أبو الفضل لبرهة . وعندما عاد أخبرنا أنهم أرادوا أن يتأكدوا من موته فتقدم أحدهم منه وركله بقدمه وحسب .. وجاء "البلدية" فأخذوه ومضوا !

سحور !

ومضت الأيام .. وازدادت الأمراض وكثرت الوفيات .. حتى كنا نخرج في فترة من الفترات ميتاً من مهجعنا كل يوم ! ولا زلت أذكر أنني كنت أنام بجانب الأخ كمال أندورة في ليلة من تلك الليالي الرهيبة ، وكنت قد نويت صيام اليوم التالي ، فنهضت قبيل الفجر لأتسحر . وكان كمال بعد أن اشتد عليه المرض في الفترة الأخيرة لا يستطيع النوم مستلقياً وإلا اختنق . فكان يتربع في مكانه ويستند رحمه الله إلى الجدار ويظل يكابد طوال الليل ويتأوه ويعاني . فلما نهضت لأتسحر وجدته ساكتاً على غير عادته . فجعلت أناديه بصوت خافت . فلما لم يجبني وارتبت في الأمر دفعته براحتي ، فوجدته يسقط ميتاً على الطرف الآخر .

ولم يكن وارداً وقتها أن أقوم بأي حركة تكشفني أمام الشرطة على سطح المهجع ، فسحبت البطانية على وجهه بكل هدوء ، والتفت فسحبت صندويشة كنت قد وفرتها من عشاء الأمس لتكون سحوراً لي ليلتها ، فجعلت أدس اللقيمات في فمي دساً وأغص بهن ، والأخ بجانبي مسجى لا روح فيه ! وعندما استيقظنا صباحاً ومضينا لنغسله قبل أن يعلم الشرطة بموته وجدناه رحمه الله تخشب جسده وقد مضت على وفاته بضع ساعات . حتى إذا انتهينا بعد جهد يكلله الرعب أخبرناهم بموته . فلم يزيدوا عن أن نادوا "البلدية" ليسحبوه .. وانتهى الأمر !

سُنّة طيبة !

ومما لا ينسى من مشاهد الأمراض والأوبئة التي دهمتنا قصة أخ من حمص اسمه عبد المعز العجمي . أصابه مرض اليرقان الكبدي عام 1982 وأشرف على الموت بسببه . وجعل الأخ أبو الفضل رحمه الله يجهد نفسه ويجهدنا في توفير كمية من الطعام له من نصيبنا . وكان رحمه الله أول من سن هذه السنة الطيبة في إيثار المرضى على شدة حاجتنا وضآلة نصيبنا من الطعام . وجعلنا ندعو لأخ ونسأل الله له الشفاء . وسبحان من استجاب ومنّ على الأخ برحمته . فلم يمض شهر كنا نظن الأخ في أوله مودعاً حتى قام بيننا صحيحاً معافى . وكانت آية أخرى فيه أن طلب فيما بعد إلى الإعدام . ونال شرف الشهادة عام 1984 بعد أن نجا من الموت بسبب اليرقان .

الطبيب القاتل !

وإذا كانت حكايات الأسى وروايات المعاناة في سجن تدمر لا تنتهي فإن مما لا ينسى من بينها حكاية الأخ زاهد داخل التي تجسد كل معاني الطائفية الحاقدة والهمجية التي مارسها النظام

السوري على شعبه .. وتفسر أسباب ثورة تلك الفئة المؤمنة على جلادها ولجوئهم إلى القوة كحل وحيد لم يجدوا من دونه سبيلاً للنجاة .

كان زاهد رحمه الله طالباً متفوقاً في كلية الطب بجامعة حلب في سنواته الأخيرة .. جمعته الأقدار على طاولة الدراسة مع طالب آخر من طائفة النظام اسمه محمد يونس العلي . وفي أحد الأيام تعرّض يونس هذا لزميلة لهم في الصف من أسر حلب المحافظة ، وجعل يلاحقها بفظاظة ويتابعها بالتصريح وبالتلميح فلا يجد منها إلا الصدود .

ودارت الأيام وشاءت الأقدار أن يتقدم زاهد نفسه لخطبة الفتاة ذاتها وأن ينال موافقتها وموافقة أهلها معاً . وتم الزواج وعمت الفرحة قلوب كل الناس إلا يونس هذا .. الذي اعتبرها قضية كبرى وعدواناً على كرامته لا يغتفر . وجعل يهدد الفتاة وزوجها بشكل معلن .. وينذرهما بالويل والثبور وعظائم الأمور . وزاهد المؤدب الحيي لا يملك إلا أن يعرض عن الجاهلين .

وانتهت الدراسة ، وتخرج زاهد ويونس من كلية الطب ومضى كل منهما في طريق . حتى إذا اشتعلت الأحداث في سورية وأسفر النظام عن أقبح الوجوه وجد زاهد نفسه فريسة بين أيدي المخابرات يتنقل من عذاب إلى عذاب ومن سجن إلى آخر ، حتى انتهى به المقام في مهجع 5-6 بتدمر ! وشاءت الأقدار أن يكون طبيب هذا السجن - ويا للهول - محمد يونس علي نفسه ! أما الإجابة عن كيفية وصول زاهد ويونس كلاهما إلى هذا المكان .. وعلاقة ذلك بتهديدات يونس السابقة فذلك ما لم نعرفه . لكنا تأكدنا كلنا أن هذا الطبيب كان يبحث من أول يوم عن شخص محدد اسمه زاهد داخل بين السجناء في مختلف المهاجع . وجعل الشرطة العسكرية يدورون على مهاجع الباحة الأولى حيث تم فرز زاهد على واحد من مهاجعها ويسألون عنه مرة بعد مرة .. حتى تم للجاني ما أراد وشاهد زاهداً في يوم من الأيام أثناء التنفس فقال للشرطة ها هو ذا . ومن لحظتها أخرجه الزبانية وأوسعوه ضرباً وجلداً ومسبات وقالوا لرئيس مهجعه : هذا معلّم . ويبدو أن زاهد قد لمح يونس أو سمع بوجوده فأدرك ما يدور .. وعرف أن طبيب السجن هو جلاده وغريمه نفسه .. وأسر بذلك للإخوة في مهجعه وسأل الله الستر .

وجعل الشرطة يخرجون زاهداً بسبب ومن غير سبب ويذيقونه في كل يوم جرعة مضاعفة من العذاب .. ومضت أسابيع على هذه الحالة أيقن زاهد والإخوة معه أنه مقتول لا محالة . حتى إذا انهار ولم يعد يستطيع الخروج للتنفس وجلس في المهجع كما اعتاد من أصابهم مرض أو أقعدهم التعذيب أن يفعلوا أخذ الشرطة يبحثون عنه بين المرضى ويعذبونه هناك .

وفي يوم مكفهر أخذ الزبانية التفقد في مهجع 5-6 ولكن من غير أن يخرجونهم كما تقتضي العادة . وأتى الأمر من الرقيب فيصل كحيلة للإخوة أن يضبوا كلهم في زاوية المهجع . فلما فعلوا ولم يبق في ذلك الركن إلا زاهد المسكين وقد انتهت فيه كل قدرة على الحركة تقدم فيصل وعريف من الشرطة العسكرية اسمه شحادة وهوى كلاهما بالعصا على رأسه بكل قوته فانفلق من فوره ..

وسقط زاهد على أرض المهجع يتخبط دمه ، ومن غير أن تختلج في القتلة عضلة واحدة خرجوا وأقفلوا باب المهجع . ولم يلبث القتلة أن فتحوا نافذة الباب ونادوا رئيس المهجع وسألوه عم حدث . فأجاب المسكين بهلع : لا أعرف سيدي ، أظنه وقع على الأرض وأصيب بارتجاج في الدماغ ! فأقفل الجناة النافذة ومضوا غير عابئين ، وهرع الإخوة إلى زاهد فرأوه قد أسلم الروح ، فجعلوا يسحبونه إلى الحمام ليغسلوه . في تلك اللحظة فتح الباب من جديد وأمر الشرطة رئيس المهجع أن يخرج الجثة . فجعل المسكين يسأل الإخوة أن يساعدوه فأبوا . وأقعدهم الخوف وفظاعة المشهد عن أن يتقدموا خطوة واحدة . فلم يجد الأخ إلا أن يسحب جسد زاهد سحباً حتى باب المهجع . وجاء "البلدية" كالعادة فحملوه من بعد ومضوا به وكأن شيئاً لم يكن !

الفصل الرابع

أمر بالفاحشة !

وأمعن الشرطة في إجرامهم وغيهم .. وزادوا في بطشهم وتفننوا في أساليب العدوان . فكم من مرة فوجئنا ونحن في ساعة النوم بواحد من هؤلاء السفهاء يطل علينا من الشراقة فوق السقف ويبول فوقنا عامداً متعمداً .. أو يبصق علينا مرة واثنتين وثلاث . والويل كل الويل لمن رفع رأسه أو تململ في مجلسه ! ولكم أخرج هؤلاء الظلمة واحداً أو أكثر من بيننا في منتصف الليل ليتسلوا بتعذيبه من غير أي سبب .. أو اجتمع عليه الجلادون في حر الظهيرة فأوسعوه لطماً وضرباً وسحلوه على أرض الباحة وهم يضحكون !

وعلاوة على الكبلات والعصي والسياط التي كانت تنهش الجلود وتحطم الأضلع وتشوه الوجوه ، عمد الزبانية إلى استخدام قضبان حديدية في ضربنا . ويا بؤس من ناله من هذه القضبان ضربة ! وإضافة إلى ذلك استخدم الشرطة القضبان ذاتها لتحطيم نفسياتنا . فكانوا إذا حان يوم الحلاقة مثلاً دخلوا من باب الساحة السادسة التي تبعد عن مهجعنا عشرات الأمتار ورموا القضبان الحديدية على أرضها الإسمنتية لينطلق صوت ارتطامها بالأرض فيصلنا كأنه نذير الموت ! ولم يكن الإخوة كلهم في درجة واحدة من الثبات وقدرة التحمل . فكان بعضهم ترتعد فرائصه إذا سمع ذاك الصوت ويبكي حتى من قبل أن يصل الجلادون !

غير أنه مما لا ينسى أبداً من مشاهد تلك الفترة يوم أن أطل أحد الحراس من شراقة السقف ونادى على أخوين شقيقين في مهجعنا وأمرهما بكل صفاقة وسفالة أن يخلعا ملابسهما ويفعلا الفاحشة ببعضهما البعض ! ومع الضحكات الفاجرة والمسبات الدنيئة أصر المجرم على تنفيذ الأمر .. ولم يجد الأخوان إلا أن يجاريانه خشية أن يحدث ما لا تحمد عقباه .. فخلعا ملابسهما بالفعل .. والسفيه يلاحقهما ليفعلا أكثر وأكثر .. وأطرقنا نحن وأغمضنا عيوننا لا نكاد نصدق هذا المدى من الخسة الذي بلغه أولئك الوحوش .. وجعلنا نبتهل في سرائرنا أن يصرف الله الأذى وينجي الأخوين وينجينا من هذا الخسيس . والكفر بالله والمسبات والشتائم تتدلق علينا من فمه النجس ولا تكف . فلما أحس أنه ضحك بما يكفي وحقرنا بما يشفي غليل حقده ورحل .. أحسسنا وكأننا خرجنا من كابوس مرعب لا يوصف . وأطرقنا صامتين لا نستطيع أن ننظر في وجوه بعضنا البعض ساعات عديدة . ولم يفتح أحد منا سيرة ما جرى بعدها .. ستراً للأخوين وحفاظاً على شعورهما وكرامتهما ، وكرامة وشعور أبيهما الذي كان نزيل المهجع نفسه !

ولقد تكرر مثل هذا الحدث غير مرة . وأعاد هؤلاء السفهاء الطلب وأمثاله في أكثر من مهجع ..وكانوا يفتحون الباب علينا أو ينادون في التنفس واحداً منا ويقول الشرطي له :

أنت يا ... أنا بدي أعمل في أمك كذا .. شو ؟

فكان المنادى يسكت أول الأمر ولا يجد ما يجيب به . فتأتيه لطمة أو ضربة من جلاده وهو يصيح به :

كرر يا ... أنا بدي أعمل بأمك كذا . شو ؟

فلا يجد المسكين إلا أن يقول بذل وانكسار :

أنت تريد أن تعمل بأمي كذا وكذا سيدي .

فإذا أشبع ذلك من صلف المجرم تركه ، وإلا أمره أن يعيد ما قال ويُسمع به آخر من في الساحة أو في المهجع حتى تقر عينه الفاجرة وتسكن هواجسه الخبيثة !

المنفردات

وذات يوم من أيام عام 82 القاسية دخل عناصر الشرطة العسكرية المهجع فجأة وأمرونا جميعنا بالانبطاح . وما أن امتثلنا للأمر حتى أمرونا بالوقوف من جديد . ولم يكن لمثل هذه الأوامر من سبب إلا إرهاقنا وإذلالنا . لكنهم وعندما انتصبنا واقفين لمحوا أخاً بيننا اسمه أحمد فطومة من حماة كان مشمراً قدراً عن ذراعيه . فقالوا له ولطمة من أيديهم المتعطشة للدماء تطاله :

هنت (أي أنت) بتتحدانا ولا ؟ قوم للسواليل .

وسحبوا الأخ سيئ الطالع من بيننا واقتادوه إلى واحدة من بضع زنازين منفردة قرب المطبخ يسمون الواحدة منها سالولاً بلغة السجن . واقتادوا أخاً آخر من حمص معه لسبب تافه مماثل . ولقد غادرت المهجع بعد قرابة العام والأخَوَان في السجن ألإنفرادي لم يعودا بعد . وبلغني لاحقاً أن الأخ أحمد فطومة مات من التعذيب . ووصلتنا الأخبار بعدها كيف أن العذاب يتضاعف على الإخوة هناك ويجتمع الشرطة كلهم على السجين الواحد بدل أن تتوزع سياطهم واعتداءاتهم على مهجع بأكمله . ولكن وحشة الإنفراد وهول الوحدة في هذا المكان الرهيب تظل في اعتقادي أشد من كل هذا العذاب وأقسى !

من لائحة الجناة

وعلى الرغم من أن أفراد الشرطة العسكرية والرتب التي تعلوهم كانوا يحرصون على عدم معرفتنا لشخصياتهم وأسمائهم . ورغم الظروف القاسية التي كنا نواجهها عندما نكون أمام واحد

منهم . إلا أننا وبمرور الأيام تمكنا من معرفة بعض منهم . وكان ذلك يتم على الأغلب من سماعنا واحدهم ينادي الآخر باسمه أو يتحدث عن ثالث منهم فيذكره ويسميه . وهكذا علمنا أن مدير السجن هو المقدم فيصل الغانم الذي نفذت على عهده مجزرة تدمر الكبرى في 1980/6/26 . يساعده النقيب بركات العش ، وكلاهما من الطائفة العلوية ومن محافظة اللاذقية . وكان يقوم بمهمة ما يسمى إدارة الانضباط المساعد أول أحمد كيساني أو "أبو جهل" كما كنّاه السجناء . يساعده عريف عاصره من عام 80 وبقي إلى عام 84 اسمه فواز . ورقيب أول رافقنا من عام 81 إلى عام 85 اسمه جهاد ، كان لا يجارى في شراسته ولا يفوقه قسوة في استخدام السوط أحد . وكان ثمة رقيب آخر لا يقل عنه لؤماً وبطشاً اسمه شعبان حسين . وهؤلاء جميعاً من طائفة الأقلية الحاكمة . وكان هناك شرطي آخر غاية في الإجرام كان يتفنن في ضرب المعتقلين خاصة أيام "الاستقبالات" اسمه نعيم حنا ، بلغنا أنه مسيحي آشوري .

وعندما غادر أبو جهل السجن عام 82 ، وأشيع أنه هرب إلى العراق - وإن كنا لا ندري صحة تلك الإشاعة - خلفه في مهمته الرقيب فيصل كحيلة ، وهو علوي كذلك من اللاذقية ، وكان غاية في السادية والإجرام ، ولا يحلو له أن يعذب السجناء إلا بضربات العصا الغليظة التي يمكن أن تقصم الظهر أو تزهق الروح . ولقد أشيع كذلك أن فيصل هذا قتل فيما بعد ، وهي مجرد إشاعة تضم إلى كثير مما كنا نسمعه ولم نتأكد منه . وكان يساعده في مهمته عريف اسمه علي شعبان ترفع إلى رتبة رقيب أول لاحقاً . وعريف آخر من القتلة اسمه شحادة من نفس الملة والعلة . وكان من أبرز زبانية تلك المرحلة شرطي من الطائفة ذاتها اسمه سمير كوشري . وكنا نسمية "حيّو" لأنه كان لا يكف عن إطلاق هذه الكلمة كلما انتشى بتعذيب واحد منا !

وبعد فيصل كحيلة تولى مسؤولية إدارة الانضباط الرقيب أول محمد الخازم الذي استمر في هذه المهمة حتى عزل مع المقدم فيصل الغانم عام 84 ضمن عمليات تصفية مراكز القوى وتسوية الحسابات بين الرئيس حافظ الأسد وأخيه رفعت كما بلغنا ، إثر معافاة الأول من مرضته الشهيرة حينذاك . وقتها آلت مسؤولية السجن إلى النقيب بركات العش بشكل مؤقت . ثم لم يلبث أن استلم هذا الموقع المقدم غازي الجهني ، وهو علوي من قرية المخرّم بمحافظة حمص . فاختار الرقيب محمد نعمة ليكون مسؤول الانضباط في السجن ، وهو علوي مثله من جب الجراح بمحافظة حمص أيضاً . واستمر العش نائباً للجهني إلى أن انتقل عام 1987 إلى سجن صيدنايا وأصبح مديراً له .

رقابة صارمة

ولقد كان اختيار هؤلاء الزبانية انتقائياً واضحاً ، تجسيداً لهيكلية النظام الحاكم ذاتها القائمة على منهجية الفرز الطائفي البغيض وتمكين الأقلية الموتورة من حكم الأغلبية المغلوبة على أمرها . فالعلويون هم أصحاب الهيمنة الأكبر والعدد الأكثر المسيطر على مختلف مواقع المسؤولية

والمراتب التي تدير السجن . وثمة عناصر معدودة فاسدة الضمير من أقليات أخرى طائفية أو عرقية تمارس دور المخلب الذي تتحكم فيه قبضة الطائفة العلوية وتسخره لخدمتها . علاوة على بعض من أبناء الأكثرية السنية ممن يقضون فترة خدمتهم الإلزامية في هذا الموقع . ويعيش هؤلاء وكل المجموعات الأخرى تحت رقابة صارمة دائمة . ومثلما لا يسمح لهم أن يتحدثوا مع السجناء أبداً أو يسألوهم عن أسمائهم حتى لا يتعرف أحدهم على الآخر فيعرفه بالصدفة فيعطف عليه أو يتساهل معه . كذلك فإن أشد العقوبات مصير من يضبط في حالة كهذه . ولقد بلغنا أن رقيباً من حمص من آل السباعي كان يخدم جنديته الإلزامية في هذا الموقع قبل حضورنا أبدى بعض التسامح مع المعتقلين وتساهل معهم في أمور لا تذكر في هذا الجو المرعب . فلما تكرر ذلك منه تم ضبطه ومحاكمته ، وأعدم المسكين وعلقت صورته كما سمعنا في غرفة الذاتية ليتعظ بها العناصر والعسكريون الآخرون !

خصومات !

وكان من آثار أحداث حماة أيضاً أن حضرت مجموعات جديدة من السجناء من أهل المدينة . ومن هؤلاء بلغتنا أهوال ما حدث .. وتعرفنا على إخوة جدد صار بعضهم من أعز الناس إلى القلب . ومن هؤلاء لا أزال أذكر الأخ سحبان بركات الذي كان قد اعتقل حقيقة الأمر عام 81 ثم أحضر إلينا بعد الأحداث . ولقد جرى إعدامه فيما بعد رحمه الله . وكان معه ابن عمه صبحي بركات الذي كان طالباً في كلية الطب بجامعة دمشق ، وهو من الطلاب الأذكياء جداً .

كذلك أذكر ممن حضر وقتها أحمد دعدع من حماة الذي أعدم بعد سنة أو سنتين . وغالب هؤلاء الذي أحضروهم اعتقلوا من بيوتهم أو جامعاتهم ولم تكن لهم كلهم صلة مباشرة بالأحداث . ومع هؤلاء حضرت نوعيات أخرى من المعتقلين من عامة الناس الذين انفعلوا بالأحداث واندفعوا للمشاركة فيها من غير تربية مسبقة أو انضباط كامل . ففاجأتهم المحنة من غير أن يستعدوا لها ، وكان بعضهم في بداية الأمر سبباً لنشوء المشاكل والخصومات في المهجع ، لكننا استطعنا استيعاب أكثرهم ولله الحمد ، وتمكنا من عبور تلك المرحلة . فتحسن خلقهم ، وأخذ أكثرهم في الانضمام إلى إخوانهم والاندماج ببرامج المهجع من حفظ للقرآن ومداومة على الأذكار والعبادات .

فرز الأحداث !

ويبدو أن إدارة السجن لم تكن لتغفل عن هذا أو كأنها كانت تتوقع حدوثه ، ولذلك لم تلبث أن قامت بعملية فرز للسجناء صغار السن أو الأحداث كما يسمون ، فخصصت لهم مهجعا 31 و

34 بالباحة السادسة . ثم لما فتحوا الباحة السابعة فيما بعد نقلوهم إلى هناك ووزعوهم على المهاجع 35 ، 36 ، 37 فيها ، لعزلهم عن إخوانهم الأكبر سناً فلا يتأثروا بأفكارهم أو يتقووا بوجودهم معهم .

جرعة لبن !

مضت قرابة سبعة أشهر لم نعد نسمع فيها عن تنفيذ أحكام إعدام حتى ظننا أن الأمر انتهى ولم يعد هناك المزيد . ورغم أننا لم نجد لذلك تفسيراً إلا أن مشاعرنا مع مرور الأسابيع والشهور جعلتنا نعتقد في أنفسنا توهماً وتأميلاً بأن الإعدامات انتهت ، وأن الفترة السوداء من سجننا قد ولت .

غير أن الأمل سرعان ما تبخر كالسراب ، وتكسرت أجنحة الحلم حينما فوجئنا ذات صباح بالمشانق تنصب من بعد الفجر بقليل ، وبالشرطة يجوبون المهاجع ويسألون عن أسماء بعينها . ولم تلبث أصوات التكبيرات أن علت من جديد .. فأسقط بأيدينا .. وانهارت آمالنا الواهية .. وعدنا يلفنا الوجوم والترقب . حتى إذا فتح الشرطي باب المهجع 26 علينا انتفضنا كلنا وقد بلغت القلوب الحناجر واحتبست أنفاسنا .. وكل منا يتوقع أن يتلو الشرطي اسمه ويناديه للردى . لكن جلادنا لم يناد إلا اسم أخ واحد من بلدة سراقب اسمه عبد الحكيم العمر كما أعتقد . كان مدرس لغة عربية وملازماً مكلفاً حين اعتقل . وكان صاحب فضل علينا في المهجع بدماثة خلقه وحسن معشره ، وبحلقات البلاغة والنحو التي واظبنا عليها حتى تعلمنا منه الكثير . وقال له أن يضب أغراضه لأنه سينقل إلى مدرسة المدفعية بحلب حيث كان يقضي خدمته الإلزامية . ورغم استغرابنا من هذا الأسلوب الجديد إلا أننا قدرنا أنهم إنما أخروا إعدامه لأنه عسكري وحسب ، وأن دوره الآن قد دنا .

وأدرك عبد الحكيم أنها منيته ، وجعل رحمه الله يطوف علينا ويتفرس في وجه كل منا ويردد آخر كلمات له في هذه الدنيا سمعناها :

سامحوني يا شباب .. واللقاء إن شاء الله في الجنة .

فلما وصل بتطوافه إلى مجموعة من أهل بلده كانوا شركاء في مجموعة الطعام في المهجع أوصاهم بأهله وأولاده . لكننا فوجئنا به وعيوننا تتابعه وقلوبنا تطوف معه يستدير نحوهم فجأة ويطلب بعض اللبن كانوا قد وفروه لفطورهم عند المغرب ليأكل منه . وكانت آية والله رأينا فيها مصداق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه : "نفث في روعي الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها" .

ووالله الذي لا إله إلا هو أخذ عبد الحكيم صحن اللبن وأكل منه . واتجه بعدها إلى الباب ونحن لا نصدق أنه مفارقنا ، ومضى إلى الإعدام ونفسه رحمه الله تفيض بالرضا والاطمئنان ، وكأنه ذاهب لملاقاة أحب الناس إليه !

لا خضوع !

وفي مهجع السل 23 بالباحة الرابعة حيث كان قد اجتمع على إخواننا هناك كَرْبُ السجن وكَرْبُ المرض أخرج الشرطة يومها أخاً مسلولاً من حلب اسمه يوسف عبارة للإعدام . وقتها لم أكن قد انضممت للمسلولين بعد ، لكنني سمعت القصة عندما صرت واحداً منهم بعد حين . فلقد نادوا الأخ رحمه الله إلى لقاء ربه قبيل صلاة الفجر . فهرع وصلى مع الإخوة الفريضة ثم ودعهم ومضى إلى منيته مقبلاً على الله . وكان من نزلاء المهجع نفسه أخ شاعر موهوب تفجرت مشاعره عندما أبصر الإخوة يساقون رتلاً طويلاً إلى المشانق ، وانسابت مع دموعه ودموع إخوانه قصيدة رقيقة له حفظناها جميعاً وأخذنا ننشدها منذ ذاك يقول فيها :

وسار موكب الجناز في الصباح

مخلفاً وراءه الجراح

وراسماً مسيرة الكفاح

فلا حياة دونما سلاح

من قبلها نادى المنادي هاتفاً مجلجلاً

حي على الفلاح .. حي على الفلاح .

. . .

وسار موكب الشباب في خشوع

لم يعرفوا لغير ربهم خضوع

عيونهم تضيىء كالشموع

تقول للأجيال لا خضوع

من قبلها نادى المنادي هاتفاً مجلجلاً

حي على الفلاح .. حي على الفلاح .

وداع الأشقاء

وتتابع نصب المشانق وتكرر مشهد الزهرات تساق إلى حتفها على أيدي الزبانية الطغاة . وكان من أشد المشاهد إيلاماً كما بلغني يوم أن سمع أخ من بيت العابدي من دمشق اسم أبيه يطلب للإعدام من مهجع مجاور . ورآه يساق أمام عينيه من خلال ثقوب الباب فتزهق روحه على حبل المشنقة . وكان الولد قد اعتقل مع أبيه وهو ابن خمسة عشر عاماً في مرحلة دراسته الإعدادية !

ولم يكن أقل إيلاماً يوم أن طلبوا فيما بعد اثنين من الشباب المعتقلين معنا للإعدام هما طريف حداد وملهم الأتاسي وكلاهما من حمص . وكان معهما في نفس المهجع شقيقاهما بشار حداد ومطاع أتاسي . وعندما تقدم بشار ليودع أخاه طريف ثابت الجنان قال له : اثبت واصبر .. واللقاء في الجنة . والحمد لله أن رزقك الشهادة . ولا تنسانا من الشفاعة .

كذلك خرج من بيننا أخ آخر للقاء الله في تلك الأيام العصيبة هو عبد الغني دباغ من حمص . ثم لم نلبث أن سمعنا بأن أخوين اثنين له في مهجع آخر أعدما بعد مدة وجيزة من الزمان .

تبجحات !

وانتهت أحداث حماة .. وانتهى عام 1982 الذي شهدنا فيه أقسى الظروف وأسوأ المعاملات . وبدأت ذيول تلك المحنة تنجلي شيئاً فشيئاً . ولم نلبث مع مرور الأيام أن وجدنا أنفسنا نتدرج نحو مرحلة جديدة مغايرة من المعاناة .

كانت البدايات حينما أخذ يتناهى إلى أسماعنا أن مدير السجن العقيد فيصل الغانم يقوم بزيارات تفقدية للمهاجع يزجر فيها السجناء ويهددهم مرة .. ويستفسر منهم عن احتياجاتهم ويسألهم عن أحوالهم مرة أخرى ويعدهم خيراً . وبلغنا ضمن هذا السياق أن أحد الإخوة تجرأ ذات مرة وسأله

عن سبب منع المعتقلين من الصلاة ، فأجابه الغانم بكل تبجح أن إدارة السجن ليست ضد الصلاة ولا ضد التدين ، ولكن الأرض في المهاجع نجسة ولا تصح عليها الصلاة ! وزاد الراوي أن الشرطة عادوا بعد زيارة الغانم تلك فأوسعوا السائل ضرباً جعله يحرم وكل من بلغه الخبر السؤال والأخذ والرد مع هؤلاء إلى آخر العمر !

وتسارعت الأمور .. وبدأت المستجدات الغريبة تفاجئنا مرحلة بعد مرحلة .. فلا نكاد نستوعب للأولى سبباً حتى يَجِدَّ على الساحة جديد . ونحن في ذلك كله لا نبصر إلا عشر معشار ما يدور ، ولا ندرك إلا الجزء الضئيل مما يدور أمام أعيننا .

وكانت البداية الظاهرة لنا حينما خرجنا ذات يوم من أيام سنة 1983 إلى التنفس كالعادة وجعلنا نسير في خطنا كالمعتاد ، فوجدنا الشرطة يستدعون واحداً من سجناء مهجعنا اسمه خالد عوض السالم ، واقتادوه مغمض العينين إلى مساعد السجن الجديد محمد الخازم الذي خلف فيصل كحيلة وقتها فكان شر خلف لشر سلف ! ومن غير أن يفتح خالد هذا عينيه سمع المساعد يأمره أن يرفع رأسه ففعل . فسأله عن اسمه فأجاب . فاكتفى بأن صفعه على وجهه وأمره بالعودة . وعندما بلغنا ما حدث وجدناه تصرفاً طبيعياً طالما تكرر ما هو أسوأ منه بلا أي مبرر . لكن الرقيب جهاد ما لبث وأن عاد إلى المهجع مع عدد من أعوانه وطلبوا أبا عوض معهم . وعندما عاد بعد ساعة من زمن وجدناه غير الشخص الذي عرفنا .

أبو عوض !

كان خالد عوض السالم سجيناً من صوران مات شقيقه - كما ذكرت - على صدره بسبب السل قبل أقل من عام ولفظ أنفاسه بيننا وهو يذكر الله ويشهد له بالوحدانية . ورغم أن الأخوين اعتقلا بتهمة تجارة السلاح إلا أن الفارق بينهما كان كالفارق بين السماء والأرض . فخالد هذا كان معروفاً حتى من قبل اعتقاله بسوء الخلق وفساد الذمة . ولأنه كان فوق ذلك صاحب جسم ضخم وعضلات مفتولة فقد جعلوا خدمته الإلزامية قبل سنوات خلت في الوحدات الخاصة أو الشرطة العسكرية .

كانت أول مفاجأة في عودة أبي عوض أنه ذهب سجيناً وعاد بقدرة قادر رئيساً للمهجع ! وأمر الشرطة أبا الفضل الذي حافظ على مسؤوليته طوال هذه المدة أن يتنحى ويسلم رئاسة المهجع لخالد . ولم يكن على أبي الفضل إلا الانصياع بالطبع . ووجدنا أبا عوض يتبدل بين ليلة وضحاها . وبدأت شخصيته المتنفذة تطفو على السطح الآن .. وتتبدى عنجهيته بسبب ومن غير سبب .

وصار لأبي عوض - وهو الذي طالما ضاعف الشرطة عليه القتل والتعذيب أثناء الحلاقة والتنفسات بسبب ومن غير سبب - استثناء خاص من الحلاقة .. فطال شعره من دون كل الألوف من هؤلاء السجناء جميعاً ، وأرخى شاربيه فكأنه واحد من الشرطة لا فرق ! ولم تلبث الأسرار أن تسربت من المقربين إلى أبي عوض إلينا ، فحدثهم كيف أنه كان سجيناً ذات يوم في سجن تدمر هذا أيام خدمته الإلزامية جزاء على مخالفة عسكرية فعلها . وكان محمد الخازم رقيباً في نفس السجن وقتها .. فقامت بينهما علاقة ومعرفة . واتفقا على أن ينشئا تجارة لصالحهما بين السجناء ، يقوم محمد الخازم بتأمين مادتها ، ويتولى خالد ترويجها بين زملائه في المهاجع بأسعار مضاعفة مستغلاً حاجتهم لمثل تلك المواد . فلما شاهد الخازم أبا عوض الآن وجده الرجل الأمثل ليحقق به مطالب السيد الكبير مدير السجن الذي أوعز إليه كما تبدى ترويج نفس التجارة بين السجناء البؤساء في تدمر .

ورغم أن ذكرى أخيه لم تكن قد خفتت بعد .. وعلى الرغم من الاهتمام البالغ الذي أولاه الإخوة بخالد نفسه في أشد أيام المحنة مراعاة لوضعه وترقيقاً لقلبه ، حتى أنهم كانوا يؤثرونه بطعامهم لضخامة جسمه ويوفرون له من فتات الطعام الذي يصلهم حصة مضاعفة له وحده . ويتقدمونه في التنفس والحلاقة معرضين أنفسهم لسياط الزبانية وعصيهم حماية له وإخفاء من الشرطة الذين علّموه وقتها بجسمه الضخم فأدمنوا مضاعفة العذاب عليه . برغم ذلك كله فإن أبا عوض لم يحفظ للإخوة ذاك . فها هو ذا يريد أن يتسلط عليهم ويتحكم فيهم وكأنه لم يعد سجيناً وبات هو السجان ! وجعل في سبيل تحقيق غايته يؤلب الناس على بعضهم ويوظف بيننا من ضعاف النفوس جواسيس ينقلون إليه ما الذي يدور بين الحلقات وبماذا يتحدث المساجين عنه . وكان يريد أن يعرف كل صغيرة وكبيرة لينقلها إلى شريكه وسيده الجديد . وصار يسطو على طعام الآخرين ويأخذ ما شاء من الوجبات نوعاً وكماً .. ولم يتورع حتى عن استخدام يديه مع بعض الإخوة والاعتداء عليهم بالضرب تماماً كما يفعل بقية السجانين ! ولا أزال أذكر أن أحد ضحاياه كان الأخ محمد صنوبر حافظ كتاب الله الذي نال منه قتلة ذات مرة لم تقل عن أي من تلك التي يذيقنا إياها جلادونا قساة القلوب ذاتهم !

مهجع المدعومين !

وأخذت الأمور تتطور بالتدريج من حولنا ، فلم نلبث أن تبلغنا في شهر آذار 1983 بتغيّر النظام العام للسجن ، وأنه بات مسموحاً لنا الآن أن نفتح أعيننا ونرفع رؤوسنا أمام الشرطة العسكرية بشكل طبيعي . وبدأنا نلحظ تغيراً نسبياً في تعامل الشرطة وإدارة السجن مع مهجعنا في ظل ولاية أبي عوض عليه . فخفت الضغوط بعض الشيء عنا ، وأوكلت مهام الأمر والنهي داخل المهجع إلى أبي عوض أغلب الأحيان . ولم يعد الشرطة يكثرون من الدخول علينا أو التنكيل بنا . فيما تتالت لقاءات أبي عوض مع محمد الخازم الذي كان يستدعيه إلى الذاتية بين حين وآخر ، فإذا عاد وسئل عما جرى لم يجب إلا بالقشور .

وأخذنا نسمع عن زيارات تتم لبعض السجناء يحضر أهلهم لمشاهدتهم فيحضرون لهم كميات من الهدايا والأموال غير قليلة . وكان ذلك لا يتم إلا للموسرين بالطبع . وبعد واسطات ورشاو فاحشة عرفنا بها من بعد . وفوجئنا من ثم بهؤلاء السجناء يتواردون على مهجعنا واحداً بعد الآخر ومجموعة إثر مجموعة . حتى بتنا نسمي مهجعنا ذاك مهجع المدعومين !

ومع هذه التطورات عاد الطبيب يجول على المهاجع ويقدم بعض العلاجات الأساسية للسجناء ، وتم تعيين مسؤول صحي من السجناء في كل مهجع ، تكون مسؤوليته تقديم تقرير بالحالة الصحية للسجناء إلى الطبيب حتى لا يضطر الطبيب نفسه إلى فحص المرضى والتعرض لاحتمالات الإصابة بالعدوى منهم !

أُخوّة بالإكراه !

وفي يوم من أيام شهر حزيران عام 1983 فوجئنا بالشرطة يخرجوننا إلى الباحة ويخرجون معنا سجناء المهاجع الأخرى في باحتنا .. وإذ بمدير السجن المقدم فيصل الغانم الذي كان أحد المشرفين على مجزرة تدمر الكبرى عام 1980 يقف فينا خطيباً لأول مرة ويكلمنا بلهجة ما اعتدنا أن نسمعها قط كل هذه الأيام التي خلت .

ولأكثر من أربعين دقيقة جعل يحدثنا أننا فعلنا كذا وكذا ، وأخطأنا بحق الوطن ، ولكننا برغم ذلك نظل إخوة ! ووسط إيعاز الشرطة لنا بين كل جملة من كلامه والجملة الأخرى بالتصفيق تساءل الغانم عن الفرق بين العلوي والسني .. وأضاف فقال بملء فيه : أنا خَيّكُم (أي أخوكم) غصباً عنكم .

وبين الاستغراب المطلق والتحفظ المطبق من جانبنا أكمل الغانم محاضرته بالحديث عن إسرائيل التي قامت بمجزرة صبرا وشاتيلا . وقتلت من الأبرياء كذا وكذا . وأن سوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي تقف بوجه إسرائيل وأمريكا ! واتجه بالحديث نحونا مرة أخرى فقال : أما أنتم فقد غرر بكم لتقوموا بأعمال ليست في صالح البلد ، غير أن الابن إذا أخطأ في حق أسرته فإنها تعاقبه ولكنها لا تتخلى عنه .. ولذلك فأنتم الآن تقضون فترة عقاب ، لكنكم ستخرجون بعدها وتحل الأمور .

وانتهت المحاضرة كما بدأت حافلة بالغموض والغرابة . وأخذت التساؤلات والتحليلات والتكهنات تتوالى . لكن شعوراً واحداً غمرنا جميعاً يوحي بأن ثمة تطورات جديدة في الأفق . ولم تلبث الأمور أن أخذت تتسارع لتتكشف على حقيقتها بعد حين .

كذلك طرأ على حال السجن تغيير جديد بالتسجيل وقتها . فلأول مرة وبعد هذا الصمت المطبق طوال الأعوام السابقة فوجئنا بالميكروفونات تنقل لنا بث إذاعة دمشق على الهواء مباشرة 12

ساعة في اليوم . فكانت لنا نافذة نتابع من خلالها أخبار العالم خارج الأسوار ، ومنفساً نخرج منه عن اعتيادية حياتنا القهرية بعض الشيء . وبالطبع فلم يكن مسموحاً لنا من قبل ولا من بعد أن ندخل جهاز راديو إلى مهاجعنا ولا أن نستخدم الورق والأقلام أو الكتب .. وأما المصاحف فكانت كما ذكرت واستمرت إحدى أكبر الممنوعات !

ذيل الثعبان !

غير أن هذه التطورات كلها كانت تخفي وراء وجهها المليح مؤامرة خسيسة .. كان المقدم فيصل الغانم رأسها المدبر وعرابها الخبيث . وكان أبو عوض من جانبنا أداتها القذرة وذيل الثعبان الذي يتحرك لمصلحة الرأس الخبيث بكل خسة ولؤم . ولم تمض مدة من الزمن حتى تبين لنا كيف أن الغانم هذا قد نظم خارج أسوار السجن شبكة من مصاصي الدماء ترأستها أمه نفسها التي كانت تتولى تنظيم زيارات لنخبة من أهالي المعتقلين الموسرين للاجتماع بأبنائهم في سجن تدمر مقابل مبالغ طائلة من المال . لكن ذلك لم يكن يشبع جشع الرجل ، وكان ينظر إلى الأموال التي يأتي الأهالي بها لأبنائهم المعتقلين عساها تدفع عنهم بعض الشر أو المعاناة .. فيراها غنائم مغرية يسيل لها لعابه . ولذلك وحتى يضمن الغنيمة كلها أنشأ شبكة ثانية من العملاء والأجراء داخل السجن مهمتها امتصاص تلك الأموال بطريقة أخرى . كان أبو عوض مخلبها القذر بيننا .. فعرف عن طريقه احتياجاتنا ورغباتنا وحالتنا .. وفي سبيل ذلك كانت خطبته العصماء تلك ، وكانت سلسلة القرارات الاستثنائية التي أحاطت بها .

وهكذا اتجهت الحال بعمومها نحو تغير نسبي . فبات التعذيب نوعياً بدل أن يصيبنا في كل غدوة وروحة . وصار الشرطة يسمحون لنا بالخروج إلى التنفس مفتوحي الأعين نتنعم بالشمس من غير ضرب كثير ولا تعذيب . ثم لا يلبثوا وأن يقوموا بين كل أسبوع وآخر بتعويض السجن كله بحفل شديد مفاجئ من التعذيب ، بحيث يبقى الكل منضبطين يحسبون للحفل القادم ألف حساب . وأما المحاكمات والإعدامات فلم تتأثر بكل هذا الذي يجري ، وظل شبح الموت مخيماً علينا يتخطف الزهرات من بيننا ويطبق على أعناق الشباب الغر ونحن لا نملك في رد ذلك حولاً ولا قوة .

آخر الأنفاس !

وفي ليلة من تلك الليالي كنت أنام بجانب الأخ مأمون الذهبي . وكان المسكين قد أصيب بالمرض فتدهورت صحته بشكل متسارع ومريع . حتى بات وهو الذي كان لاعب كراتيه مفتول العضلات قوي البنية لا يقدر على مغادرة فراشه . ليلتها وفي ساعة متأخرة نام كل من

في المهجع ونمت معهم ، مد مأمون يده الواهنة نحوي وجعل يهزني حتى استيقظت . فلما سألته ما به قال لي رحمه الله :

صدري يؤلمني .. اقرأ لي عليه .

فوضعت راحتي على صدره وجعلت أقرأ من الآيات والأدعية المأثورة . حتى إذا سكن وخلته نام عدت إلى النوم من جديد . فلما دنا الصباح صاح فينا أبو عوض كعادته :

الكل استيقاظ .

فقمنا كلنا وبقي مأمون في مكانه تغطي وجهه البطانية ولا يتحرك . فناداني أبو عوض لأوقظه ، فناديته فلم يرد . قال أبو عوض على مشهد من الجميع:

اخبطه برجلك ليفيق .

فكشفت عن وجهه وناديته لينهض . فلما حدقت وجدته قد فارق الحياة . قلت وأنا أكاد أحس آخر أنفاسه لا تزال تتسارع على راحتي :

هذا مات يا زلمه !

فلم يهتز لأبي عوض شعرة ، ولم يزد عن أن مضى ليخبر الشرطة بحالة وفاة جديدة في مهجعه . وهرعت أنا فسحبت مأمون بمساعدة الإخوة فأدخلناه الحمام وغسلناه . ولم يلبث "البلدية" أن حضروا فأخذوه ومضوا .

مملكة الوهم !

ونمت مملكة أبي عوض الواهية .. فخصصت له إدارة السجن مكاناً يديره كمتجر أو دكان بقالة كان يبيع فيه السجناء الشاي والخضار والفاكهة والاحتياجات الرئيسية التي كانوا محرومين من معظمها ويقبض على ذلك أفحش الأثمان ! وفي نفس الوقت كان فيصل الغانم يترصد الزوار فيخضعهم كالعادة للتفتيش . فإذا أرادوا أن يعطوا أبناءهم مبلغاً من المال كان له نصيب مباشر فيه . وإذا أحضروا لهم ملابس أو حاجيات أجاز دخول بعضها وصادر بعضها الآخر بحجة أو بأخرى . فيحمل أبو عوض الأشياء التي صودرت ويدور بها على المهاجع ويبيعها للمساجين أيضاً . وهكذا تصب كل الأموال التي أحضرها الزوار المساكين في جيب مدير السجن وشركاه . ولم تكن بيدنا حيلة لوقف هذا الاستغلال المكشوف . وكنا نشتري أغراضنا المسروقة

من غير تردد . ففي حالنا البئيس ذاك كنا بحاجة لأي لقمة طعام نتقوى بها أو قطعة ملابس تقينا الحاجة والبرد وتخفف عنا ولو بعض تلك المعاناة .

وهكذا اغتنمنا جشع أبي عوض وحالة الرخاء الظاهر تلك ، فأقبلنا ابتداء على توثيق علاقاتنا داخل المهجع أكثر وقد أمنا مداهمات الشرطة من فوق الشراقة إلى حد ما . وصرنا نتعرف على أحوال بعضنا البعض ، ونتبادل الحكايا والخبرات والمعلومات . ونضاعف همتنا لحفظ سور القرآن الكريم وآياته . وفي هذا السياق صرنا نُخَرِّج حفظة كتاب الله مجموعة إثر مجموعة ، ونعد لذلك حفلاً كبيراً نوفر له من الطعام أو الحلوى التي تصلنا من الزيارات أو من مخصصاتنا اليومية طوال أسبوع أو اثنين . فينال أبو عوض حصة الأسد منه ليسكت عنا ويأذن لنا ، ونوزع البقية علينا احتفالاً بالإخوة الحفظة وتكريماً لهم .

سماح !

كذلك استفدنا من ظرفنا الاستثنائي ذاك فصرنا نشتري من بضائع أبي عوض المسروقة أشياء ما ونرسلها مع رسالة مختصرة إلى إخوة أعزاء في مهاجع أخرى . وكنا نتلقى بنفس الأسلوب ردودهم وهداياهم . وعن هذا الطريق صار الإخوة يتأكدون من وجود فلان أو إعدامه . وعن نفس الطريق وصلني إلى مهجع السل أواخر عام 1983 إبريق شاي من أبي الفضل الذي انتقل إلى مهجع آخر بعد مدة يلمح لي به أنه حكم بالإعدام . وكان قد كتب لي على الإبريق يقول : إلى محمد سليم .. محمد جمال سماح . فعلمت أنه يطلب المسامحة لأنه راحل عما قريب . وبالفعل فلم تمض بضعة أسابيع حتى بلغنا أنه أعدم رحمه الله .

وفي المقابل كان أبو عوض ينتفخ وينتشي بالوهم وبعض سقط المتاع . ولقد سمعنا أنه طلب من المساعد أن يسمح لأهله بزيارته مرة فسمح لهم . وتردد أنه هرّب مع أخيه الذي زاره نقوداً من تلك التي جمعها من تجارة الحرام التي امتهنها ، لكن علم ذلك عند الله . وأما ما علمناه نحن ورأيناه فكان آية من آيات الله بالفعل . فلم تمض على هذه المظالم مدة من زمن حتى رأينا الدائرة تدور على أبي عوض ، وينتقم الله من أفعاله الشنيعة شر انتقام . وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً بإذن الله .

الحزبية الإقليمية !

لم تكن حياتنا في السجن ملائكية أو مثالية . فبينما كنا أيام الشدة نزداد قرباً إلى الله وتجرداً وتلاحماً كنا إذا طال علينا العهد نرتد إلى أصولنا وخلفياتنا ومشاربنا الشتى . وبعد أن مضت هذي السنون علينا يضمنا مهجع موحش باطنه عذاب وظاهره أشد وأنكى . ومع اختلاط

الانتماءات وتعدد المشارب بدأت تظهر بيننا في فترة الانفراج النسبي تلك اختلافاتنا المذهبية والتنظيمية والإقليمية معاً !

ولقد ظهر ذلك أول ما ظهر حينما استطعنا أن ننظم بعض الدروس الهادئة إذا سنحت الظروف وأمنا الحرس من فوقنا ومن حولنا . فوجدنا الإخوة لم يلبثوا أن أخذوا يتكتلون فرقاً وجماعات تتجادل في البداية حول قضايا المذهبية واللامذهبية .. والإتباع والابتداع .. وما يندرج تحت هذا الباب من جدل أنهك الأمة قروناً ولم ينته لصالح أحد ! حتى أن الإخوة صاروا يختلفون على الأذان الذي يبلغنا من وراء أسوار السجن قادماً من منارة مسجد مدينة تدمر . وكان وجه الخلاف حول مشروعية الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام جهراً في خاتمة الأذان !

وسرعان ما أخذ الخلاف الذي استشرى مأخذ الحزبية التنظيمية . وطفت على السطح اختلافات تنظيم الإخوان التاريخية بين دمشق وحلب . أو بين جماعة الأستاذ عصام العطار وجماعة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . واستطاع الإخوة الحلبيون وفق ما رأيت أن يجرّوا الدمشقيين من دائرة الاختلاف التنظيمي إلى دوامة الخلاف المذهبي . وأشاعوا بيننا أن الدمشقيين سلفيون لا مذهبيين . وانعكست هذه الصراعات المقيتة على السجناء كلهم فآذتهم وأرقتهم . وآذت أكثر ما آذت الحياديين وغير المنظمين أصلاً . ورأى هؤلاء في هذا الخلاف أسوأ صورة للجماعات والتنظيمات الإسلامية كلها . ورأيتنا نعود بجدليات الطرفين المتعصبين إلى القرون الوسطى ونتفرق في قضايا لا يبنى عليها عمل أساساً .

وتطور الأمر بسرعة .. أو فقل ارتد الناس إلى خلفياتهم وتشوهاتهم التي أتوا منها ! فبعد أن انتقل الخلاف من الفكر والمذهبية إلى الحزبية التنظيمية انتهى الأمر بسقوط الأطراف جميعاً في وحل الإقليمية الضيقة ! فتكتل السلفيون الموالون للأستاذ عصام في تكتل دمشقي . وأخذ المذهبيون الحلبيون الموالون للشيخ عبد الفتاح طرفهم الإقليمي . واستغل الحمويون التابعون للأستاذ عدنان سعد الدين القضية ليجمعوا الحمويين في كتلة ثالثة ! وانعكس ذلك على المهجع أسوأ انعكاس . وتفرقت القلوب شتى . وانعزلت كل كتلة في دائرة مغلقة تجاور الدائرة الأخرى والثالثة ولا تتداخل معها .. رغم أن المحنة لم تكن تفرق بين أي من هذه الكتل وأصحابها .

ولم تلبث أن تعقدت الأمور أكثر حينما نشأ تيار تكفيري فيما بعد نتيجة هذه الضغوط وتلك الفتن معاً ، فازداد الطين بلة .. واشتد التعصب والتعنت .. وامتدت أحكام التكفير لا لتشمل النظام وأركانه وأعوانه وحسب ، بل كل من لم يلتزم بالفكر التكفيري وقيادته ومنهجه !

الفصل الخامس

السل

كانت أبدان السجناء قد أنهكت إلى أبعد الحدود بعد سنين من العذاب المستمر والجوع والحرمان والعيش في أسوأ الظروف الصحية والنفسية . وعلى الرغم من هذا الانفراج الظاهر الذي حدث إلا أن الوقت كان قد فات . وبدأ عدد الضحايا يرتفع من جديد .. وتزايدت حالات الوفاة المرضية والإصابات المزمنة ، حتى مات من مهجعنا وحده قرابة الأربعة عشر أخاً لم ندر إلا بعد أن قضوا رحمهم الله أن الذي أصابهم حقيقة الأمر كان مرض السل . وعندما تطورت معرفتنا بهذا المرض الخبيث ووجدنا من يفقهنا في أعراضه وأشكاله علمنا أنه لا يصيب الرئة وحسب ، وإنما هناك سل يصيب الأمعاء وسل بالكلى وثالث بالعظام ورابع وخامس . ولم يكن في مهجعنا حتى تلك الفترة الطبيب المتخصص الذي يقدر على تشخيص الداء ، مثلما لم يكن لدينا العلاج المطلوب حتى إذا علمنا به واكتشفناه .

وواقع الأمر فإن مرض السل تم اكتشافه منذ عام 1982 في المهجع 5-6 بالباحة الأولى . وهو واحد من أقدم مهاجع سجن تدمر . كبير المساحة مظلم الجنبات شديد الرطوبة . ولقد قدر أن يكون أحد نزلائه الطبيب محمود العابد من حماة ، الذي كان أحد أطباء قسم الأمراض الصدرية في إحدى مستشفيات حلب . لكن الإخوة وقتها ومن خوفهم من بطش الشرطة وإحساسهم بانعدام التجاوب أو الاهتمام لم يبلّغوا عن المرض . فلما لاحظت إدارة السجن ازدياد الوفيات وتوافق ذلك مع حالة الانفراج العامة تلك فتحوا للمسلولين مهجعاً خاصاً في الباحة الرابعة هو المهجع 23 .

ونعود إلى مهجعنا 26 الذي بات الآن في عهد ولاية أبي عوض القسرية عليه أحد مهاجع السجن الخاصة إن لم يكن أخصها جميعاً . وأما السبب فكان - كما ذكرت - اتفاق إدارة السجن مع أبي عوض على تحويل السجناء الموسرين وأصحاب الزيارات والواسطات إلى مهجعنا ليكونوا تحت عينه ورقابته الدائمة .. وتكون الزيارات والنقود التي يرسلها أهاليهم المساكين أدنى إلى جيب أبي عوض وأسياده من جيوب أصحابها أنفسهم !

وفي هذا السياق وضمن عمليات النقل والتحويل جاء إلى مهجعنا مجموعة من الإخوة الدمشقيين أذكر منهم محمد الحوراني ، وسليم الأسد ، وعدنان المؤيد ، وأخ من بيت دبش وغيرهم . وكان سليم الأسد طبيباً من دمشق نقل من مهجع 5-6 بعد أن تعلم من الدكتور محمود العابد هناك فحص المسلولين وتشخيص إصابتهم . ونقل لنا وقتها نبأ اكتشاف إصابات سلية بين السجناء . وأخبرنا عن تخصيص مهجع 23 للمسلولين ، وأن أخاً آخر هو زاهي عبادي من دير الزور

والذي كان في سنته الرابعة بكلية الطب تطوع للذهاب إلى نفس المهجع والإشراف على إخوانه المسلولين ، ثم لم يلبث رحمه الله أن أصيب نفسه بالمرض عن طريق العدوى .

وفي يوم من الأيام كنا في التنفس أنا والأخ صبحي بركات أحد أفراد مجموعتي ففوجئت به يستند إلى ذراعي بادي الإجهاد ، وقال لي وهو لا يقوى على إخراج الكلمات أنه يحس بالغثيان وبالدوار ولا يقوى على الحركة . فطلبنا له من الرقيب إذناً بدخول المهجع . وهناك لم يلبث الأخ صبحي أن تقيأ وسقط محلول القوى . وعندما عدنا من التنفس فحصه الأخ سليم فتبين له أنه السل . وعندما حضر الشرطة وأخبرناهم أسرعوا ونقلوه إلى المهجع 35 في الباحة السابعة والذي خصص بدوره في تلك الفترة للمسلولين بعدما ضاق بهم مهجع 23 .

ومر شهر آخر وإذ بي أجدني أعاني من الأعراض نفسها : ارتفاع في الحرارة ، وقلة شهية للطعام .. وسعال وتعرق وإجهاد متزايد . وبعد أسبوع من المعاناة فحصني الأخ الطبيب سليم أسد فوجدني أصبت بالسل أيضاً . وعندما أخبر إدارة السجن بذلك نقلوني بدوري إلى مهجع السل ، وكان ذلك في الشهر السادس من عام 1983 وبعد أيام قليلة من محاضرة فيصل الغانم العامة أمام السجناء .

جرعة العذاب !

دخلت المهجع 35 في الباحة السابعة فوجدت ويا لهول ما وجدت ! أكثر من مائة من الإخوة ألقى المرض بكلكله عليهم فسلبهم نضارة الحياة وسمت العافية . فهذا لا يكف عن السعال وفي يده علبة صفيح صدئة يبصق فيها البلغم والدم . وذاك يتقيأ بين فينة وأخرى ولا يستطيع أن يمسك نفسه . وثالث أصاب السل كليتيه فانتفخ جوفه وكأنه امرأة حامل ! ووجدت المصاب بسل الخصيتين ، وسل العظام ، وسل السحايا ، وسل الرئتين .. وكان على كل أولئك وعلي أن نستخدم الحمام نفسه وأن ننام متجاورين نتبادل العدوى ونتلقاها شئنا أو أبينا .

ولقد كنت أظن أو أؤمل أن تكون ظروف مهجع المسلولين أفضل من غيرها ، لكنني وجدت الأمور كأنها لم تتغير . فالبطانيتان اليتيمتان والعازل على حالهم .. والشراقة والنوافذ المفتوحة كتلك التي في بقية المهاجع . والحرس على الباب وفوق المهجع يروحون ويغدون . وهناك برنامج غير منقوص من التفقد إلى التنفس إلى سوء الطعام ورداءة الظروف . وعندما نكون في الساحة أو يرى الشرطة منا ما لا يسرهم كنا ننال من الضرب والجلد والعذاب ما لم يختلف عن ذاك الذي يناله الإخوة الأصحاء في مهاجع أخرى . ولعل ميزة المهجع الوحيدة كانت في نزلائه المسلولين جميعاً .. وفي جرعة الدواء التي خصونا بها وحسب ! وحتى جرعة الدواء تلك كانت أداة تعذيب وابتزاز لنا .. فلا يكاد ينقضي شهر على توفرها حتى تنقطع وتغيب أسبوعين أو

عشرة أيام . فإذا عادت جعلنا نتخوف انقطاعها ونترقب وصولها فنزداد قلقاً على قلق وعذاباً على عذاب .

وهكذا ، ومع اضطراب تعاطي الدواء واستمرار سوء التغذية وقساوة الظروف استمر الإخوة يتساقطون موتى واحداً بعد الآخر حتى عددت أكثر من عشرين أخاً ماتوا من مهجعنا نحن فقط . ومن هؤلاء أذكر الآن أخاً من حمص اسمه عبد الرحمن فليطاني ، وآخر اسمه عبد الساتر مصطفى من نفس المدينة . ومصطفى المصطفى من قرية منخ قرب مدينة حلب . وآخر اسمه الأول مصطفى من حلب أيضاً .

نوبة قلبية

ومن شهداء مهجع السل أيضاً تحضرني قصة الأخ محمد حسن عجعوج من حماة الذي كان من جماعة الشيخ مروان حديد الأوائل. والذي قامت المخابرات السورية باعتقاله من لبنان بعيد اعتقال الشيخ مروان ، وأودع سجن المزة مع بقية من اعتقل وقتها . ومع تطور الأحداث وتصاعد موجات الاعتقال في بداية الثمانينات نقل الأخ حسن إلى سجن تدمر بعد المجزرة الكبرى التي حدثت هناك . وتنقل من مهجع 9 إلى مهجع 11 لألتقيه وقد أصابه السل آخر الأمر في مهجع 35 .

وهناك وفي يوم من الأيام وصل محمد حسن عجعوج نبأ استشهاد أسرته جميعاً أثناء أحداث حماة قبل أقل من عام . وسمع بأن واحداً من إخوته سُحِلَ في شوارع المدينة سحلاً . فلم يتمالك رحمه الله وأصيب بنوبة قلبية قضت عليه .

وصار أمراً اعتيادياً بيننا أن ننادي الشرطي صباح كل بضعة أيام ونخبره بوفاة أحد المرضى ، ثم نلتفت إلى برنامجنا ذاته نكاد لا نحس تجاه الأخ الفقيد بالحسرة قدر إحساسنا بالغبطة أن قبضه الله إليه فاستراح من هذا العذاب .

هستيريا

ومن مشاهد مهجع السل التي لا تنسى مشهد الأخ بسام الحافظ من حمص الذي فقد القدرة آخر الأمر على تحمل كل هذه العذابات والضغوطات النفسية وما عاد يقدر على تلقي المزيد . فوجدناه في ليلة من الليالي ينهض وسطنا وقد احمرت عيناه فكأنما هما من دم أو نار وراح يطلق عقيرته بالصراخ والعويل . وكان الإخوة كلما حاولوا تهدئته ازداد انفعالاً وتأزماً .

ودخل الشرطي المناوب يستطلع الأمر ، وأمر المسؤول الصحي الأخ زاهي عبادي أن يسكته بالقوة . فلم يجد الأخ إلا أن يعطيه إبرة مسكنة هدأته بالتدريج . وفي الصباح نادى الشرطي المسؤول الصحي ليخرج هذا الأخ إليه . فلما خرج المسكين انهال الشرطة عليه ضرباً وجلداً وأعادوه يكاد يسلم الروح . لكنه وعندما حل المساء عاد وانتفض وكرر ما حدث ليلة الأمس . فعاد الأخ زاهي وأعطاه إبرة ثانية مهدئة . وعندما أتى الشرطي من جديد رجاه أن هذا السجين مصاب بالهستيريا ولا يملك من أمره شيئاً . ووعده أن يبذل أقصى جهده لتهدئته وعلاجه . بعدها طلب زاهي منا أن نكف عن محادثة الأخ بسام . ونصبوا له في زاوية من زوايا المهجع ما يشبه الخيمة وأجلسوه فيها . وظل المسكين قرابة الشهرين معزولاً عنا لا يكلمنا ولا نكلمه بشيء .. أخذ خلالها يتحسن بالتدريج . ثم جرى نقله بعدها إلى مهجع آخر ولم نعد ندري ما الذي انتهت به الحال إليه .

ألفية ابن مالك !

ومضت مسيرة العذاب .. تنهش المحنة من أجسادنا المنهكة وتقتات واحداً منا بعد الآخر ولا تشبع . ولم يكن أمامنا من باب نلتجئ إليه غير المولى تبارك وتعالى .. نتقوى به على محنتنا ونتعالى بالالتجاء إليه على كل الجراح والعذابات .

ولقد كانت النفوس تضعف حيناً ، وتتقوى من ثم أحياناً أخر . لكن نفسياتنا تفوقت على أجسادنا ولله الحمد . وتمكنت من الثبات أغلب الأحيان حتى ولو انهارت الأبدان وتهتكت الأجساد . فكنا كلما خبت الهمم أو انتكأت الجراح نشد من عزم بعضنا البعض بالدعاء والصلاة والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى . ندعوه مع كل فتحة باب ، ونشكره كلما أغلقوا علينا الباب نفسه وبقينا سالمين ! وبعدها وإذا أحسسنا ببعض الأمان عدنا إلى برامجنا التي باتت غذاء أرواحنا ورواء قلوبنا .. درّتها كتاب الله الكريم . حتى إذا أتقن واحدنا حفظه التفت إلى من حوله من إخوانه فتعلم منه ما لديه من علم مفيد . فقه كان أو تجويد أو لغة عربية أو متون . فإذا أنهاها مضى يلتمس تعلم اللغة الإنجليزية أو الفيزياء أو الكيمياء .. وكل ذلك عن طريق المشافهة .

وأما أنا وبعد أن أتقنت حفظ القرآن الكريم كله بفضل الله عكفت على دراسة المتون ، وكان شيخي في ذلك أخ من حلب جزاه الله خيراً كان متقناً لحفظ المتون . فأخذت عنه البيقونية والجزرية والرحبية .. ومن ألفية ابن مالك حفظت حوالي 650 بيتاً ولله الحمد . وظهرت في هذا السياق مواهب وعجائب .. فكان بعض الإخوة يحفظون سيرة ابن هشام ويدرسونها لإخوانهم الآخرين . فلما أتقنها جمع منهم حولوها إلى منظومة أيضاً بالغة الإتقان .

التدمري الشهيد

ومن المواهب الفذة التي ظهرت بين السجناء أخ شاعر نظم مجموعة من القصائد الرائعة كنا نتناقلها بين المهاجع ونحفظها عن ظهر غيب . ولقد بلغنا أن الأخ حكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم في كل المجموعة التي حوكمت معه ولم يصل الدور إليه .. ففجر ذلك كما يبدو موهبته الكامنة ، وجعله ينطق بمعاناتنا جميعاً من خلال قصائده الرائعة . ومما لا أنساه من تلك القصائد واحدة أهداها إلى إخوانه في مهجع السل يقول فيها :

سيشرق وجهك خلف الظلام

وصدرك ينزف خلف الحديد

وما كاد يثنيك حقد اللئام

فيا أيها التدمري الشهيد

عليك السلام عليك السلام

. . .

أخي إنا بعد الأذى والهوان

سنعلو على الخلق إنساً وجان

لنا الصدر أو منزل في الجنان

وبعد الأعاصير والزلزلة

كأن فؤادي غدا قنبلة !

راحل عنك ..

كذلك فجرت المحنة موهبة شعرية أخرى في أخ من حلب كتب قصيدة يناجي فيها والدته من خلف القضبان . فتلقاها أخ آخر من مهجعنا برزت موهبته الفذة في تلحين القصائد وإنشادها .

فصارت القصيدة لحناً يتنقل على شفاه السجناء من مهجع إلى آخر ومن قيد إلى قيد .. فتشتد بها العزائم وتعلو بكلماتها النفوس :

عندما جاءت يفيض الود منها والحنين

تطرق الباب وفي دقاتها لحن حزين

أتراها تطلب الوصل وترجو أن ألين

أم تراها ظنت القيد يهز الصامدين ؟

. . .

قلت والثورة في نفسي أعاصير تجول

حسبي الله ربي ونعم الوكيل

وحملت الزاد والرشاش وقررت الرحيل

وعلى الباب بقايا من عبارات تقول

. . .

راحل عنك أقاسي من جراحي وأسافر

لا أبالي بالمنايا وعلى الطغيان ثائر

أتحدى ظلمة الليل وأحيا لأقاتل

علمتني صحبة القيد وأنغام السلاسل

أن دين الله لا ينهض إلا بالقنابل

. . .

راحل عنك أغني للسواقي والبيادر

إملؤوا البيداء نوراً ونشيداً وبشائر

ورصاصي للطواغيت إلى النار تذاكر

في سبيل الله ماض تابعاً نهج الأوائل

علمتني صحبة القيد وأنغام السلاسل

أن دين الله لا ينهض إلا بالقنابل .

أنا بعثي !

ولقد كان من ميزات مهجع السل أيضاً اختلاط انتماءات نزلائه وتعدد الاتجاهات التنظيمية والسياسية فيه . فبعد أن كان سجناء مهجع 26 من تنظيمات إسلامية أو من المحسوبين عليهم جميعاً وجدنا أنفسنا في مهجع السل 35 متجاورين مع سجناء من تنظيمات يمينية موالية للبعث العراقي . ورغم أنني وبقية الإخوة كنا ولا نزال نتعاطف مع أي مظلوم امتدت سطوة النظام فسلبته حقاً أو زادته رهقاً ، إلا أنني رأيت أولاء البعثيين في أغلبهم مجرد منتفعين مصلحيين من فلاحي منطقة الجزيرة . جاء البعثيون العراقيون إليهم فاستغلوا فقرهم وحاجتهم وبساطتهم وأمدوهم بالمال فأصبحوا يعبدون رب هذا المال ليس إلا ! ولقد تسبب لنا هؤلاء للأسف بمزيد من المعاناة ، وكانوا مصدر إزعاج حقيقي لبقية المهجع . ورغم أن عددهم تراوح بين عشرة وخمسة عشر إلا أنهم أساؤوا للمجموع مرات كثيرة . فرغم المحنة التي أصابتنا جميعاً إلا أنهم كانوا لا يكفون عن النظر إلينا والتعامل معنا كأعداء تاريخيين .. وكانوا لا يتورعون عن وصفنا رغم كل الذي حصل ويحصل بالرجعية ! ولذلك استباحوا أن يفسدوا علينا للشرطة وإلى حد الافتراء . فكان أحدهم إذا عنّ له خرج من المهجع وتوجه إلى الرقيب أو الشرطي وابتدره بالقول :

سيدي أنا بعثي .

وجعل بعد ذلك يخبره أننا ننظم داخل المهجع دروساً ولنا من بيننا شيخ نتبعه .. وأننا ندعو في دروسنا في المهجع إلى الجهاد ! ولطالما تسبب ذلك في إخراجنا جميعاً إلى الباحة لننال عقوبة جماعية بسبب هذه الافتراءات .

ولا زلت أذكر من أسماء أولئك اليمينيين واحدا اسمه حسين الحافظ ، وآخر اسمه يعقوب يعقوب ، وثالث لقبه أبو علي .. كانوا كلهم من هذه الشاكلة . وأما من كان صاحب فكر ووعي من اليمينيين على قلته فقد تحول إلى الحق وأعرض عن سفاسف مجموعته منحازاً إلى الإسلام ، وشهدنا منهم من هذا النموذج من أحجم عن ذكر اسمه الآن سائلاً الله له السلامة والثبات .

الشيوعيون المدللون !

وإذا كان هذا هو حال البعثيين العراقيين معنا فإن الشيوعيين الذين أحسسنا بوجودهم عام 84 كانوا في منزلة أخرى . ففي ذلك العام تم نقل الأخوات السجينات في مهجع المستوصف إلى سجن آخر . ولقد أحسسنا ذلك من خلال توزيع السخرة . فوقتذاك وفي ظل الانفراج النسبي أوكلت إلينا مهمة توزيع الطعام على مهاجع الباحتين السادسة والسابعة ، وكان المستوصف ضمن هذا النطاق . لكن "البلدية" الموكلين بجلب الطعام أعلمونا في يوم من الأيام بالتوقف عن تقديم السخرة لمهجع المستوصف . وكنا قبل يوم مضى قد لمحنا رتلاً من النساء يغادر المهجع وقد قارب عددهن العشرين أو زاد عليه ، فأدركنا أنهن غادرن هذا المكان ، وسألنا الله تعالى لهن ولنا الفرج والنجاة . فلما خلا المكان أتوا بالشيوعيين إليه . فكنا نلمحهم بعض الأحيان ونسمع بوجودهم . ولما انتقلت إلى مهجع 29 لاحقاً صرنا متجاورين على باحة واحدة . وأصبح من الممكن لي أن أراهم بشكل متواصل وأطلع على وضعهم مباشرة . وكان أمراً مثيراً للعجب أن حالتهم كانت تختلف عن كل بقية السجناء تمام الاختلاف . فكانوا يطلقون شعورهم .. ويخرجون للتنفس بشكل دائم . ويتحدثون فيما بينهم ومع الشرطة بحرية كاملة .. ويدخنون ويطبخون ويستقبلون الزيارات بشكل متواصل . ولم نرهم يعذبونهم أو يضربونهم أبداً .. ولم نسمع بتنفيذ أحكام بالإعدام فيهم . ولم يكن عددهم يجاوز الأربعين .

مصيدة الطليعة !

ومضت الأيام ظاهرها الانفراج وحقيقتها لؤم صرف وجشع وخسة تعصرنا من كل جنب عصراً . وخلال ذلك لم تتوقف دفعات القادمين الجدد إلى المهاجع مثلما لم تتوقف عمليات الإعدام . وكلما أخذوا من السجناء مجموعة للإعدام أحضروا مجموعة من المعتقلين الجدد بدلاً عنهم . لكن الحدث الجديد الذي زاد الطين بلة والعذاب عذاباً وقتها كان نجاح النظام في استدراج مجوعات من تنظيم الطليعة إلى سورية واعتقالهم جميعاً في خطة محكمة أوقعت عدنان عقلة نفسه بين أيدي المخابرات .

وكان استقبال شباب الطليعة غاية في الوحشية والفظاعة . وفي البداية تم عزلهم في مهجع خاص بهم صبوا عليهم فيه ما لا يوصف من العذاب .. حتى سلخوا جلودهم وهشموا أطرافهم وتركوهم من غير علاج يعانون أشد المعاناة .. إلى أن تعفنت أرجلهم المتقيحة وتفتحت جروحهم المتعفنة وسرت فيهم الغانغرينا فقضت على عدد غير قليل منهم . وبعد مدة وزعوا من بقي من هؤلاء الإخوة على بقية المهاجع ، كان منهم أخ من حلب التقيته اسمه أيمن عنجريني تم إعدامه فيما بعد . وآخر لم ألتقه ولكنني سمعت عنه وبلغني أنه أعدم بعدها وهو طاهر العلو من قرى حلب . ومن هؤلاء سمعنا بما جرى .. وبلغتنا أخبار الأحداث بالترتيب .. بدءاً بالشَرَك

الذي أوقعهم فيه النظام عبر عميل مدسوس في صفوف التنظيم اسمه محمد جاهد دندش ، وانتهاء بوحشية التعذيب الذي لاقوه قبل أن ينقلوا إلى مهاجعنا .

وملخص ما حدث مع تنظيم الطليعة الذي توزع أكثر أعضائه بين الأردن العراق بعد أحداث حماة أن قيادته قررت العودة إلى الداخل لمعاودة بناء قواعدها وبدء مواجهة جديدة مع النظام . فالتقط جاهد دندش هذا الخيط وأوحى للطليعة أنه قد أمن لهم الطريق الآمنة والأدلاء الخبراء لإيصال العناصر إلى حلب . وبدء نزول الشباب عن طريق الحدود التركية السورية مجموعة بعد أخرى يتقدمهم عدنان نفسه . كان جاهد والمخابرات السورية يستقبلونهم أولاً بأول دفعة وراء دفعة ويرسلوا إلى قيادة الطليعة في الخارج الإشارة المتفق عليها فيما بين النازلين والقيادة إشعاراً بسلامة الوصول . حتى اكتمل نزول قرابة السبعين أخاً سقطوا جميعاً بين أيدي النظام لا حول لهم ولا قوة .

ولم نعلم عن مصير عدنان عقلة نفسه شيئاً مؤكداً ، إلا أن بقية الإخوة تنقلوا من فرع العدوي إلى التحقيق العسكري فتدمر . وزاد من معاناتهم ومعاناتنا معاً أنهم كانوا شديدي الانغلاق على أنفسهم مثلما كانوا شديدين وجريئين في أحكامهم على قيادات الإخوان وتقييمهم لهم . وكانوا بعد هذا الإحباط الذي أصابهم والمشاكل التي عانوا منها من قَبْل مع قيادة الإخوان لا يتورعون عن وصمهم بالخيانة والعمالة ، ويحملونهم مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع في حماة وفيما قبلها وبعدها . الأمر الذي استفز عناصر الإخوان في المهجع وهم يرون قياداتهم التاريخية ورموز تنظيمهم تجرّح على الملأ ، وأحدث بيننا سبباً جديداً للقلق وللتوترات .

تصفيات جماعية

وما لا ينسى من أيام عام 1984 المريرة أننا شهدنا فيها أحد أكبر عمليات الإعدام الجماعي إن لم تكن أكبرها على الإطلاق . فبعد انقطاع تنفيذ الأحكام عدة أشهر في تلك الفترة فوجئنا بالمشانق تنصب ذات يوم في الساحة السادسة بأعداد كبيرة ،وراح الزبانية يخرجون من الإخوة المعتقلين فوجاً إثر فوج إلى حتفهم . يومها قدّر الإخوة الذين تمكنوا من مشاهدة جانب مما يجري من خلال شق في الباب عدد الذين أعدموا بمائتين من غير مبالغة ، كان من بينهم كما بلغنا الأخ يوسف عبيد من دمشق . ومع تسرب الأخبار فيما بعد قدرنا أن تلك الإعدامات ترافقت مع حالة النزاع التي حصلت بين رأسي النظام حافظ الأسد وأخيه رفعت ، والتي شهدت حشودات عسكرية حقيقية بينهما . وفسرنا ما حدث بأن رفعت كان يهيئ نفسه لاستلام الحكم بعد المرض الذي ألم بأخيه ، ولذلك أراد أن يصفي أكبر قدر ممكن من السجناء وينهي كل خطر مستقبلي محتمل .

المدير الجديد !

ولكن الأخ الأكبر تعافى بقدرة قادر ، وعاد يمارس سطوته على البلاد والعباد ، وهاله أن يجد النخر دبَّ في أركان النظام وبين رؤوسه المقربين ، فبدأ ـ مثلما تسرّب بعد ذاك ـ حملة تطهير وإعادة توزيع للأدوار . وفي هذا السياق طالت التغييرات إدارة سجن تدمر ، ووجدنا الشرطة العسكريين يطلبون رؤساء المهاجع لاجتماع مشترك في شهر تشرين الأول من عام 1984 . وذهب رئيس مهجعنا فيمن ذهب ، فلما عاد بعد قليل ونحن متلهفون لسماع الأخبار أخبرنا أن مدير السجن قد تغير ، ورحل معه مساعد الانضباط وسمسار الضحايا محمد الخازم . وأن المدير الجديد هو مساعده ونائبه النقيب زكريا العش . وأنه اجتمع بهم وهم مغمضو العيون وحذرهم من أن التراخي الذي ساد في الفترة الماضية قد انتهى .. وعاد النظام الآن وعاد الانضباط . ورجع نظام إقفال العيون أمام الشرطة .. والويل كل الويل للمخالفين!

ولم تمض برهة من الوقت ونحن لم نكد ننتهي من أسئلتنا وتساؤلاتنا بعد حتى حضر الشرطة لأخذ التفقد . فصاحوا فينا فور دخولهم أن نغمض أعيننا ونقف بوضع الاستعداد . وما لبثوا أن ساقونا إلى خارج المهجع وانقضوا علينا ضرباً وصفعاً وجلداً حتى سلخوا جلودنا . وبدأنا من يومها مرحلة جديدة من الشدة والعذاب . وعاد التفقد الصارم والتنفس المقيت والقتل والتعذيب والإهانات . وكان الإعفاء الوحيد للمسلولين من الحمام رحمة تقينا عذاب تلك الساعة ، لكنهم سرعان ما عوضوها بمضاعفة العذاب علينا في التنفس !

وتوقف بث الإذاعة عنا من حينها . وصدر الأمر من ذلك الوقت بتكميم أفواه الخارجين للإعدام فلم يعد يسمع لواحدهم قبل أن يطوق عنقه حبل المشنقة صوت ولا تكبير . وعاد البطش أشد علينا من السابق . ثم لم يلبث أن اشتد أكثر وتضاعف بحضور المدير الجديد اللواء غازي الجهني لاستلام منصبه بعد قرابة شهرين . فارتفعت وتيرة البطش إلى أقصى درجاتها . وعاد الشرطة إلى ممارسة التعذيب الوحشي من جديد . حتى أنهم أخرجونا في أحد الأيام للتنفس مغمضي العينين كالعادة تلاحقنا السياط والعصي والكرابيج . فكان قدر أخ من حلب اسمه عبد الباسط دشق أن تصيبه ضربة من هؤلاء الزبانية على عينه مباشرة فتفقأها . فعاد المسكين عندما عدنا تغطي الدماء وجهه ، وهو لا يكف عن التقيؤ من شدة ألمه . وعندما دق مسؤول مهجعنا الصحي وقتها الأخ علي عباس من إدلب ليخبر الشرطة بحال الأخ ، لم يجرؤ أن يقول لهم أن أحداً منهم أنفسهم فقأ عينه ، بل اعتذر وسألهم العفو وهو يقول لهم بأن أحداً من مهجعه سقط في الحمام ففقئت عينه !

لكن أحداً لم يبال ، ولم تسفر المحاولات المتكررة عن شيء . وحينما تكرم طبيب السجن وحضر لمعرفة سبب شكواه بعد يومين أو ثلاثة لم يزد عن أن أعطاه بضع حبوب مسكنة ومضى . وظل المسكين يعاني عذاباً لا يوصف شهوراً عديدة من غير أن يهتم به من هؤلاء الزبانية أحد .

تأديب !

وعلى الرغم من هذا البطش أو ربما بسببه قام واحد من المعتقلين اليافعين من إدلب من بيت سيد عيسى نزيل مهجع الأحداث 36 بالتصدي ذات يوم لواحد من الشرطة آذاه كما يبدو في الباحة أثناء التنفس فهجم عليه الشاب وضربه . ورغم أن الحادثة كانت عفوية لا تعدو أن تكون ردة فعل انفعالية وحسب ، وعلى الرغم من أن الشرطي رد عليه وقتها وأشبعه ضرباً ، إلا أن الأمر أخذ بعداً كبيراً . فأدخلوا السجناء إلى المهاجع كلهم ، وحضر مساعد السجن الجديد محمد نعمة بنفسه يحقق في الأمر . وأخرجوا الأخ المسكين فأجلسوه في الدولاب وانهالوا عليه ضرباً وجلداً حتى كادوا يزهقون روحه . وبعدما انتهوا أخرجونا نحن سجناء الباحة السابعة كلنا وضربونا ضرباً مبرحاً حتى يؤدبوننا ويقتلون فينا أي مشاعر محتملة بالتمرد . ولذلك لم يكن الإخوة يردون على أذى الشرطة واعتداءات جلادينا لسببين : فهم يعلمون أولاً أن النتيجة محدودة إن لم تكن منعدمة ، فيما سيكون الخطر متحققاً وغير محدود ، وربما أفضى بالشخص إلى الهلاك . ولخشيتهم ثانياً أن تتسبب أعمال كهذه في إيقاع الأذى ببقية السجناء من غير سبب ولا حاجة . وكان الشعور السائد أننا وقعنا بأيدي الظلمة بقدر الله ، وأننا إذا احتسبنا وصبرنا فهو خير لنا من أن نتسبب لنا ولمن حولنا بمزيد من المفسدة والأذى .

آية الله في أبي عوض !

غير أن الرأي لدى بعض الإخوة كان مختلفاً بعض الشيء كما يبدو . والصبر على هذه الأهوال وقد فاض الكيل انتهى بهم إلى قرار الانتقام من أجير الإدارة وكلبها الخسيس أبي عوض . الذي بلغ تطاوله مدى لا يسكت عنه .. وتجاوزت وقاحته حدود العفة والأخلاق . فاتفق عدد من شباب المهجع 26 على تأديبه ونفذوا ما اتفقوا عليه . فاجتمعوا وانهالوا عليه ضرباً لم يكن له أن يرده . فلما قلب أبو عوض الأمور وفكر وقدر .. وجد نفسه قد انكشف وتحطمت هيبته الواهية . ورآها كأنما فرصة ترفع منزلته لدى المدير الجديد . فطلب مقابلة الرقيب فجأة وأخبره بأن لديه أخباراً مهمة يريد أن يوصلها للإدارة . ولما سأله عن نوع هذه الأخبار قال له أبو عوض إنه اكتشف وجود تنظيم للإخوان داخل المهجع . فكانت هذه العبارة أكثر من كافية لتستنفر الرقيب والمدير وكل الزبانية على هذه الحفنة من السجناء المساكين .

واقتحم الشرطة المهجع على الفور ينتظرون الإشارة ليفتكوا بالمساجين . فلما رأى الإخوة الأمر بهذه الخطورة قرروا أن يقفوا صفاً واحداً في وجه افتراءات أبي عوض وتسلطه . وجعلوا يخبرون الرقيب بكل مخالفاته وسرقاته والرشاوى التي أخذها والانحرافات التي أحدثها . وأكدوا له أن اتهامات أبي عوض محض اختلاق . وأنهم أمامه جميعاً مستعدون لتحمل أشد أنواع العقوبات إذا ثبت من تلك الاتهامات شيء .

وسبحان من جعل الشرطة يصدقون السجناء هذه المرة . لا ندري أهي غيرة من أبي عوض الذي بات يتمتع بمزايا ويجمع من الأرباح والأموال ما لم يتح حتى للشرطة العسكرية أنفسهم .. أم أن الأمر أتى انسجاماً مع عهد المدير الجديد الذي أراد أن يساوي المساجين كلهم في العذاب والمعاناة ويفرض هيبته على رموز العهد البائد ! كل الذي دريناه وعلمناه أن الرقيب أمر أبا عوض وقد بُهِت أمام جرأة الإخوة أن يجمع أغراضه ويخرج . ومن رئاسة مهجع 26 اقتيد أبو عوض إلى الحلاق هذه المرة فجز شعره وشاربيه ، ثم ألقي به في مهجع 31 مجرداً من كل صلاحياته السابقة .

ودارت الدائرة على أبي عوض . وجعل الشرطة منه هدفاً معلّماً يخرجونه إلى الباحة كل يوم لينال عذاباً مستقلاً . وصرنا نسمع صياحه وتوسلاته تصم الآذان .. وصراخه يملأ السجن كله . حتى سلخوا جلده من القتل وحطموه من التعذيب . وظل ستة أو سبعة أشهر على هذه الحال يذوق وبال أمره ويكتوي بسيف أسياده أنفسهم . وفي أواخر عام 87 نقل أبو عوض إلى سجن صيدنايا مع مجموعة من السجناء . فأنجانا الله من شره ومكره . وأرانا آية باهرة فيه لا تنسى .

المحكمة !

وانتهى العام .. ومضت أيام عام 85 على نفس الوتيرة من العذاب والقهر والمعاناة .. لتمضي قرابة خمس سنوات على اعتقالي .. حكم خلالها من كان من دفعتي بما حكم ، ونفذت الإعدامات بمن كان نصيبه حكم الإعدام ولم تتم محاكمتي أنا بعد . ولقد كان ذلك مصدر قلق دائم لي . فالمصير الواضح يظل في النهاية أخف من انتظار المجهول . والأعمار كلها بقدر الله أولاً وأخيراً .

وفي يوم 1985/3/30 وحوالي الساعة العاشرة فتح الشرطي شراقة الباب في مهجع السل 35 وتلى أسماء عدد من السجناء من لائحة بيده مطلوبين للمحاكمة ، كان من ضمنهم اسمي أنا واسم أخوين آخرين من مهجعنا . وخرجنا أنا والأخ حزين قاسم محاميد من المعرة وهو ابن دفعتي أيضاً ، وثالثنا أخ من قرى حلب خريج المدرسة الشرعية من بيت المصطفى فيما أذكر . وفي باحة الذاتية تم تجميعنا قرابة السبعين أو ثمانين شخصاً مغمضي الأعين مكبلي الأيدي وأمرونا أن نجلس القرفصاء وجوهنا للجدار وظهورنا كالعادة باتجاه الشرطة الذين لم يكفوا عن ضربنا وركلنا ولطمنا بالعصي والخيزرانات والكرابيج .

وبعد قرابة الساعتين من الضرب والشتم والتعذيب وصل دوري ونادى المنادي اسمي فرفعت يدي بالإجابة . وعلى باب الغرفة التي تتم فيها المحاكمة أمرني الرقيب أن أفتح عيني واقتادني إلى كرسي أمام القاضي وأجلسني عليه . لكنني بقيت من خوفي وتحسبي مغمض العينين مطرق

الرأس حسب التعليمات . فناداني هذا الرجل القابع وراء المكتب باسمي وقال لي أن أرفع رأسي وأنظر إليه .

فعلت ما قال صاحب الصوت .. ونظرت فرأيت رجلاً قصير القامة أصفر الوجه لئيم النظرات .. يتدلى حول شفتيه شاربان رفيعان يخضبهما الشيب فكأنهما شاربا فأر عجوز . يتوسط شخصين آخرين عن يمينه وشماله .. قدرت أنه سليمان الخطيب الذي طالما تحدث الإخوة عنه وقصوا من قصص لؤمه وخَبَله الكثير !

من نظمك ولا ؟

هكذا ابتدرني سليمان الخطيب بالسؤال .

قلت : سيدي أنا مش منظم .

قال : شو اسمك إنت ؟

محمد سليم حماد سيدي .

قال وهو يمعن النظر في إضبارتي : أنت أردني ولا !

نعم سيدي .

ما بكفينا هالعرصات اللي عنا ولا .. انت جاي كمان هون تقاتل معهن ؟

قلت له : سيدي أنا ما قاتلت ولا عملت شيء .

وعاد يقرأ في الإضبارة للحظات ثم سألني :

شو علاقتك مع سالم الحامد ؟

قلت وقد تبين لي أنه لم يطلع على الملف من قبل : كنت أعرفه من الجامعة .

ومن غير أن يزيد أو ينقص عقد سليمان الخطيب حاجبيه وقطب جبينه ثم التفت نحوي وصاح :

نحنا عم نحكم الناس هون بالإعدام .. وإنت لازم نشنقك من بيضاتك !

واتجه بنظره إلى الرقيب وقال له وقد قضي الأمر : خذه .

وكانت تلك نهاية محاكمتي . ومضيت عائداً إلى الرقيب لا أكاد أحس لشيء من حولي بطعم أو معنى . فلما أعادني بدوره للشرطي أمرني ذاك ومن غير مقدمات أن أفتح يدي . فلما فعلت هوى بالكرباج عليهما ثم أمرني أن أجلس مكاني .

وتتابع دخول الإخوة إلى المحاكمة وخروجهم منها . حتى إذا انتهت الدفعة عادوا بنا كل إلى مهجعه . وأقبلت على الأخوين الذين خرجا من المهجع معي أسألهما عن الحكم فأخبراني أنه الإعدام أيضاً . لكن ذلك لم يكن بعد هذا الذي رأيناه طوال السنوات الخمس الماضيات يعني لنا الكثير . فالموت في هذا المكان متوقع في كل لحظة .. وهو إذا حدث خاتمة الأحزان وباب الفرج . ووالله ما رأيت أحداً ممن خرج إلى الإعدام كل هاتيك السنوات التي قضيتها هناك اختلجت له شعرة .. الكل كان إذا دنت ساعته مقبلاً غير مدبر . وإذا طلبوه بادر بنفسه يستبق إلى الباب رغبة منه بالشهادة ولقاء الله .

بقرة أبي سليمان !

ومن المضحكات المبكيات التي لا تزال عالقة بذاكرتي عن أيام المحاكمات وحكاياتها أن أخاً ممن عرضوا على المحكمة كان طبيباً بيطرياً من منطقة الساحل السوري وكان يعمل في قرية دريكيش مسقط رأس سليمان الخطيب رئيس هذه المحكمة الهزلية . ولقد حدث أن أهل سليمان الخطيب كانوا يربون الأبقار كما يبدو . فلما مرضت إحداها أخذوها قدراً إلى ذلك الأخ ليعالجها . لكنها ماتت بقدر الله بعد ذلك . ودارت الأيام وإذ بالطبيب البيطري يقف أمام القاضي سليمان الخطيب نفسه . فلما عرفه اصفر واستفز وصاح فيه :

آبتذكر يوم جبنالك البقرة وقتلتها ولا ؟ روح بدي أعدمك .

ولقد تم إعدام الأخ المسكين بالفعل . وسمعنا القصة من عدد من الإخوة كانوا معه في نفس المهجع التقيناهم بعدها . سمعوا الرواية من الطبيب وشهدوا بأنفسهم إعدامه رحمه الله !

ومما كان يتداوله السجناء عن عبثية تلك المحكمة وسخافة رئيسها ومزاجيته أن أحد العسكريين الذين كانوا يخدمون في مدرسة المدفعية بحلب أيام استشهاد النقيب إبراهيم اليوسف الذي نفذ حادثة المدرسة قبل ذلك بشهور . هذا العسكري أُمِرَ مع بقية الضباط والجنود في المدرسة بالمرور على جثة النقيب المسجاة والبصق عليها . ويبدو أن الأخ امتنع عن التنفيذ أو أحجم أمام هيبة الموت .. فاعتقلوه من ساعتها وساقوه من سجن إلى آخر لينتهي به المطاف بين يدي النقيب سليمان الخطيب هذا في محكمة تدمر . فلما سأله لماذا امتنع عن تنفيذ الأمر العسكري أجاب الأخ بأنه لم يمتنع ولكن ريقه كان ناشفاً . فاتجه سليمان الخطيب إلى كاتب المحضر وأملاه ليكتب :

.. وبصق وكانت بصقته ناشفة . إعدام !

وأعدم الأخ كذلك .. وظلت القصة تدور على ألسنة السجناء واحدة من مهازل هذا النظام واستهتاره وظلمه . وشاهداً على سفاهة ذلك القاضي الدعي ومزاجيته وحقده .

في انتظار الموت !

ومضت الأيام .. وبات الموت الآن أدنى إلينا نحن الذين حكمنا بالإعدام . وبعد شهرين .. وكما جرت العادة دوماً نصبت المشانق مع إطلالة الصباح واستعد الجلادون ، وبدأت جموع الشباب المؤمنين تساق إلى حتفها . وفتح باب مهجعنا ونادى الشرطي اسم الأخ الذي كان ثالثنا في المحكمة . لكن الذي حدث أنه رحمه الله كان قد مات قبل أسابيع قليلة بين أيدينا بعد أن غلبه السل وقضى عليه . فعاد الشرطي ومن معه يخرجون سجناء آخرين من المهاجع المجاورة . وأما أنا وما أن نادى الشرطي اسم الأخ حتى خلت منيتي قد حضرت . وإذا كانوا قد نادوا عليه فأنا وإياه قد حكمنا في يوم واحد .. وتنفيذ الحكم لا بد وأن يكون في نفس اليوم أيضاً . وهرعت من فوري فصليت ركعتي الشهادة على عجل . وجعلت أخلع عني ملابسي ليستفيد منها الإخوة الآخرون من بعدي .. ووقفت عند الباب متوجساً أنتظر أن ينادوا علي . وجعل الإخوة يقتربون مني واحداً بعد الآخر يودعونني ويثبتونني .. وراحت الخواطر تأخذني يسرة ويمنة .. وعبرت صورة أهلي أمام ناظري فغصصت . وتوجهت إلى الله تعالى أدعوه بسري أن يلهمهم الصبر والسلوان .. وأن يجمعني معهم في الجنة . وأخذت أسأله سبحانه أن يغفر لي ويتغمدني برحمته .. وأنظر إلى الباب أنتظر أن يفتح اللحظة . فإذا مرت قلت هي اللحظة التالية . لكن الوقت مر .. وانتهى تنفيذ الأحكام .. وهدأت الأمور في الخارج ولم يأت أحد . فلم أجد إلا أن أرتد إلى مكاني كما يرتد الغريق من غيبوبة الاختناق إلى صحوة الحياة .

وأيقنت أن في العمر بقية لم تزل ، وأن الأجل لم يحن بعد . ومضت أسابيع أخر .. واستعدت ساحتنا لتشهد مجموعة جديدة من أحكام الإعدام . وعاد الشرطي إلى مهجعنا فنادى الأخ الآخر حزين قاسم الذي حكم معي .. وساقوه إلى الموت وأنا عند الباب أنتظر دوري كما فعلت المرة السابقة . لكن أحداً لم يحضر لطلبي . وانتهت عملية الإعدامات كذلك من غير أن أكون أحد ضحاياها . وأخذت كلما سيقت إلى الإعدام دفعة من الإخوة أكرر ذات الموقف طوال السنوات الخمس التي تلت ! لا أشك في أي مرة منهن أن دوري قد حان الآن . وأحس أن خطأ ما قد حدث في المرات السابقات ولسوف يصححونه هذه المرة ويقودونني إلى أجلي لا ريب !

تقنين الطعام !

ومرت الأيام والشهور ولم يحن الأجل .. وخلال ذلك تم نقلي من مهجع 35 إلى مهجع السل 37 فالتقيت وجوهاً جديدة ، وتعرفت على إخوة لم يسبق لي أن التقيتهم من قبل . لكن الظروف كانت متماثلة ، والمعاناة ظلت واحدة . وزاد البلاء حينما طبق علينا نظام تقنين الطعام ابتداء من شهر أيلول 1986 فصار نصيب أحدنا من الخبز نصف رغيف فقط بدل الرغيفين الذين كنا نحصل عليهما في السابق ! وصرنا من جوعنا نأكل قشرة الصمونة مع واحدة من الوجبات ونوفر العجين بلبّها الذي لم ينضج للوجبة الثانية بعد أن اعتدنا في الفترة السابقة على رميه لأنه يصيب آكله بوجع البطن ولا يقي من الجوع . لكنا مع شدة الحاجة صرنا نعجنه مع البصل والملح ونوفره للوجبة التالية . ويوم أن كان يأتينا البرتقال كنا نقدمه على البصل فنمزجه بقشره مع العجين ، ونرش على الخليط ما توفر لنا من السكر ونحتفل به وكأنه طبق من الحلوى !

اليرقان

وهكذا انتشرت المجاعة في السجن وازدادت الأمراض وتزايد عدد الوفيات . حتى صرنا نودع في بعض الأحيان أخاً وأخوين كل يوم . وفي تلك الفترة وزيادة على البلاءات التي نحن فيها دهمنا عن غير ما موعد وباء اليرقان الكبدي .. فجعل الضحايا يتزايدون . ولخطورة هذا الوباء دعت إدارة السجن رؤساء المهاجع جميعاً إلى لقاء مشترك لتدارك الأمر . وكانت خشية الإدارة في مثل هذه الأحوال تنصب على المسؤولين وأفراد الشرطة بالدرجة الأولى . خوفاً على أنفسهم وخشية من أن تطولهم العدوى إذا انتشرت فينا . ولقد وفق الله أحد المسؤولين الصحيين وقتها فأبدى قناعته بأن الوباء إنما ينتشر عن طريق الدم بالدرجة الأولى . وأن ذلك يتم خلال الحلاقة الجماعية . ومن لطف الله أن إدارة السجن اقتنعت بكلامه . فتقرر من وقتها وقف الحلاقة الجماعية . وتم تسليم رئيس كل مهجع ماكينة حلاقة يدوية . يكون مسؤولاً عنها وعن أمر الحلاقة الدائمة لمهجعه . فرحمنا الله من عذاب الحلاقة من يومها . وخلصنا سبحانه من بعض هذا الضنك .

منع الصيام

واستمرت المحنة تدور رحاها من غير رحمة . ولم يعد للأيام ولا السنوات في حياتنا معنى .. فالبرنامج اليومي لا يكاد يتغير . والعذاب والمعاناة لا تترك لواحدنا فرصة التقاط الأنفاس . والقتل والإعدامات قتلت فينا شهوة الحياة وأطفأت معنى المستقبل لدينا . وهكذا حل عام 86 متصلاً بمأساة الأعوام التي سبقته وواصلاً إياها لما بعده من أعوام تلت . وفي بداية ذلك العام

كان قد جرى نقلي إلى مهجع المسلولين 29 في الباحة السابعة وصرت رئيساً له منذ ذاك . ولم يكن في الساحة التي عليها المهجع إلا مهجع ثان فقط هو مهجع 30 إضافة إلى المستوصف الذي تم تخصيصه للسجناء الشيوعيين كما ذكرت . فكان نصيبنا من التنفس مضاعفاً . وبدل أن يكون مرة في اليوم كما جرت العادة فقد أصبح مرتين الآن صبحاً ومساء . ساعة في كل مرة بدل أن تكون نصف ساعة كما سبق . وهذا يعني مزيداً من العنت والقتل والتعرض لأذى الشرطة المتربصين .

ولقد اشتد أذى الشرطة في تلك الفترة زيادة عما هو عليه وتمادوا في عدوانيتهم . فكنا إذا خرجنا إلى التنفس في الصباح أو في المساء جهزنا أنفسنا لحفل كامل من التعذيب ينتظرنا . ولكم كان يحلو لهؤلاء الزبانية أن يبطحوا واحداً منا على الأرض ويأخذوا بالقفز على ظهره أو على صدره بلا رحمة . ولكم تكسرت أضلاع إخوة منا في هذا النوع من التعذيب . ولا أنسى كيف قام واحد من هؤلاء الموتورين مرة بإخراج عضوه على مرأى الناس جميعاً وأخذ يبول علينا ونحن جالسين القرفصاء بين يديه في موعد التنفس ! وأما الجلد والضرب والمسبات البذيئة فهذه كلها لم تعد تدخل في الحساب لأنها جزء لازم من حياتنا على مدار السنوات التي خلت .

ومما لا يزال واضحاً في ذاكرتي عن ذلك العام أنهم منعوا فيه الصيام عنا في رمضان لأول مرة . فمن قبل كانوا يأتون لنا بالسحور والفطور بدل وجبات الطعام المعتادة . لكنهم وابتداء من رمضان عام 1986 امتنعوا عن ذلك . وصارت الوجبات الثلاث على فقرها تأتينا في مواعيدها العادية . وصار ممنوعاً ادخار الطعام إلى الفطور أو السحور . فإذا أحسوا أن أحدنا صائم أخرجوه وقتلوه قياماً وقعوداً وأجبروه على الإفطار . وهكذا صرنا ممنوعين من الصلاة ومن الصيام معاً . وزادنا الزبانية بذلك هماً جديداً وقهراً وعذاباً من نوع آخر .

كذلك يحضرني من ذكريات عام 1986 المريرة إعدام العميد أحمد غنوم الذي اعتقل منذ عام 1980 وظل طوال تلك السنين يعاني عذاباً مضاعفاً من الشرطة الحاقدين الذين كانوا يتلذذون بتعذيبه رحمه الله ، ويحسون بالنشوة وهم يرون أنفسهم يتحكمون بهذه الرتبة العسكرية العالية وهم مجرد أفراد مجندين في التسلسل العسكري .

اختناق

ومع اشتداد الكرب وتوافد المزيد من السجناء على المهاجع التي اكتظت بنزلائها حدثت في شهر آب من عام 87 حادثة مثيرة . ففي ذلك الشهر الذي يسمونه آب اللهّاب ارتفعت الحرارة بشكل غير معقول في الوقت الذي كانت التهوية في المهاجع منعدمة والشراقات والنوافذ تجلب المزيد من السخونة ولا تقي من وهج الشمس شيئاً ، مما تسبب في حادثة اختناق جماعي كادت تودي بأرواح العشرات .

ولقد بدأ الاختناق وقتها في مهجع السل 36 قبيل المغرب وأخذ السجناء الذين شارفوا على الموت يقرعون الباب وينادون الحرس وقد طاشت منهم العقول وشارفوا على الهلاك . فلما أتوا يسألونهم عم حدث صاحوا فيهم أنهم يختنقون . لكن الشرطة لم يأخذوا الأمر مأخذ الجد وتلكؤوا في الرد عليهم . ففقد السجناء المساكين عقولهم وقد قاربوا أن يفقدوا أرواحهم جميعاً ، وأخذوا يقرعون الباب ويدقون على الجدران ويرفعون أصواتهم بالصراخ والمسبات .

وسرعان ما صدرت الأوامر للشرطة فانتشروا على أسطحة مهاجع الباحة كلها ، وسلطوا الرشاشات الكبيرة 500 مم على المهجع خشية أن يتطور الأمر إلى تمرد أو عصيان جماعي ، ثم فتحوا الباب للسجناء ليخرجوا إلى الباحة . وما أن فعلوا حتى اندفع الإخوة من غير وعي لا يلوون على شيء . وارتموا على الأرض يتلوون ويتقيؤون . وحضر طبيب السجن وقتها وتأكد من جدية الأمر . ولم يلبث أن صدر الأمر بإخراج سجناء المهاجع كلهم إلى الباحات تفادياً لتكرار الأمر . وبقينا يومها في الهواء الطلق حتى قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل قبل أن يعيدونا إلى مهاجعنا . ومن يومها وعلى مدى أسبوعين تاليين ظللنا نخرج إلى التنفس مرتين في اليوم من غير ضرب أو تعذيب . وسمحوا لنا وقتها أن نرش أرض الباحة الإسمنتية بالماء للتخفيف من حدة الحر . ثم لم تلبث هذه الاستثناءات أن انتهت . وعدنا إلى برنامج المعاناة نفسه . فنجونا من الحر القاتل ومن الاختناق ولكن إلى حين !

تنقلات

مضت أيام قليلة على حادثة الاختناق تلك لأراني أنقل من مهجع السل 29 إلى مهجع جديد للأصحاء بنوه أمام مهجع 25 في الباحة السادسة أطلقنا عليه اسم "جديد ظهره" . فوجدتني في مساحة غرفة ونصف محشوراً مع مائة وعشرين سجيناً نكاد من شدة الزحام أن نجلس فوق بعضنا البعض !

ولقد تم اختياري رئيساً لهذا المهجع أول ما دخلناه . فلما رأيت الحالة على هذا الشكل اندفعت مع أول وجبة طعام يحضرونها إلينا وقلت للمساعد أن العدد كبير هنا . ومن غير أن يجيبني بشيء مضى المساعد وأرسل الشرطة بعد قليل فأخرجوني وأطعموني قتلة قياماً وقعوداً رجعت منها إلى المهجع محملاً !

لكن الحر لم يكن ليرحمنا .. والمكان يطبق علينا بجدرانه الصماء فكأنه القبر . ولم تمض أيام قلائل حتى طفح الكيل بنا وفقدنا القدرة على التحمل . وجعلنا قرابة منتصف الليل ننادي الشرطة وندق الباب ونقفز نحو النوافذ نكاد نختنق . وعاد الشرطة فأخرجونا إلى الباحة ساعة زمن ثم أعادونا . ثم لم يلبثوا وأن عادوا وطلبوا عشرين شخص منا ليغادروا إلى مهجع آخر فكنت في طليعتهم . ووجدتهم يقودوننا إلى مهجع 28 في نفس الباحة . فكانت فرصة لي للنجاة من

الازدحام من جهة ، والتعرف على إخوة جدد من ناحية أخرى . كان من أبرزهم الشيخ محمد سعيد عطا أحد تلاميذ الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي . فاستفدت من علمه ومن صحبته .

كذلك التقيت في مهجع 28 رجلاً من بيت العطار من حلب وجدت الإخوة يجهدون في مداراته وخدمته والتخفيف عنه . ولم ألبث أن أعلموني أن المسكين شهد سَوْقَ ولديه الاثنين إلى الإعدام أمامه وهما في مقتبل العمر . وما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً .

الفصل السادس

مغادرون .. وقادمون !

ولم تطل إقامتي في مهجع 28 كذلك ، فلم ألبث أن نقلت من جديد إلى مهجع السل 18 في الباحة الرابعة فكانت محطة قصيرة أخرى ، حدث خلالها أن قامت إدارة السجن بنقل الشيوعيين ومجموعة أخرى من السجناء الأحداث إلى سجن صيدنايا الذي بني حديثاً وقتها . فلما خلا المستوصف من الشيوعيين نُقلت إليه مع مجموعة من السجناء الآخرين . ثم لم نلبث في هذه الفترة العصيبة أن تناهى لأسماعنا وصول دفعة جديدة من المعتقلين حلوا بدلاً عن المغادرين إلى صيدنايا . ولقد بلغنا أن الوافدين الجدد اتهموا بحوادث تفجير باصات وقطارات وقتها ، وأن عددهم كان بين الستين والسبعين ، عزلوهم كلهم في مهجع مستقل وسلطوا عليهم أشد أنواع العذاب حتى قضى عدد منهم حتفه . ولقد كنا نسمع أصواتهم وهم يعذبون ونتلقى نتفاً من أخبارهم من هنا وهناك ، غير أننا لم نلتق بهم ولم نعرف عن مصيرهم شيئاً مؤكداً بعد ذلك .

وبعد أن مكثت هناك فترة تم نقلي ثانية إلى مهجع 29 . ثم لم ألبث أن نقلت مرة أخرى إلى مهجع 28 . وبعد حوالي خمسة أو ستة أشهر تالية نقلت من جديد إلى مهجع 22 في الباحة الرابعة . وفي هذا المكان تعرضت إلى محنة جديدة كدت أن أفقد حياتي بسببها وقتذاك . ورأيت من الأهوال هناك ما كاد ينسيني كل هذا الذي رأيت وعانيت من قبل !

حتى في المنام !

كانت الأسابيع الأولى التي أمضيتها في مهجع 22 كالواحة التي فاجأت عابراً أنهكه العطش وهدّه التعب في صحراء قاحلة . فمن قبل كنا في المهاجع الأخرى معرضين ليل نهار لمراقبة الشرطة من فوق الشراقات . ولم نكن بذلك نأمن شرورهم بسبب كان أو من غير سبب . فلما جئت مهجع 22 وجدته من غير شراقات . ووجدتنا على الرغم من الشدة المحيطة وسوء الأحوال نغتنم هذه الفرصة ونتنعم بها أيما تنعم . فوقتها استطعنا من أن نعود إلى صلاة الجماعة ونؤديها بشكل طبيعي بعد أن حرمنا ذلك كل هاتيك السنين . وصار أحدنا إذا أراد أن يتحدث في الأوقات التي لا يتردد الشرطة فيها علينا وقف وتكلم وأنصت له الباقون وحاوروه وشاركوه .

كذلك كانت تلك الفترة استثنائية بالنسبة لتوفر الطعام أيضاً . فلم يكن عددنا قد جاوز الستين ولكننا كنا نتلقى طعاماً مخصصاً لحوالي المائة والخمسين وفق ما اعتاد الشرطة أن يحشروا في هذا المهجع وفي سواه . ولقد تم اختياري رئيساً للمهجع 22 أيضاً من أول ما وصلت إليه .

لكن هذه النعم لم تطل . ومع اشتداد الأحوال في السجن عام 1988 وازدياد الأوامر صرامة وقسوة فوجئنا بالإدارة تقرر فتح شراقتين في سقف المهجع 22 أسوة ببقية المهاجع الأخرى . وعاد التنفس ليصبح مرتين في الصبح وفي المساء . ومع كل موعد تنفس حفل تعذيب .. ومع كل فتحة باب للتفقد أو لإدخال الطعام حفل آخر . ولم تلبث أن صدرت إلينا الأوامر لأول مرة خلال فترة سجننا بالكامل أن نغطي أعيننا ونحن نيام ! وألزمونا أن يحتفظ كل منا بطماشة دائمة معه ليغطي بها عينيه حين النوم . علاوة على أن يكون النائم دائماً على جنبه باستمرار . فعدنا بذلك إلى وضعية الانكشاف المستمر للشرطة الذين يتجولون فوق المهاجع باستمرار . وصار واحدهم إذا شاهد من الشراقة أحداً منا يتقلب في الليل خلال نومه أو يتحرك حتى ولو من غير إرادته صاح بالحرس الليلي أن يوقظه ويعلّمه . فإذا أصبح المسكين كان الشرطي وعذاب لا يعلمه إلا الله في انتظاره !

ولكم كان الشرطي يطل على المهجع بعد منتصف الليل يتصيد أحداً يشبع فيه تشهيه للقتل والتعذيب . فإن لم يجد كان أسهل ما يكون عليه أن ينادي على الحرس الليلي ويأمره أن يعلّم نفسه ! بل إنهم كانوا يحضرون في الصباح ويسألون رئيس المهجع أين المعلَّم . فإن لم يكن الشرطي قد علّم أحداً ليلتها قالوا له : أخرج الحرس الليلي من ساعة الثانية عشرة إلى الواحدة مثلاً . فيخرجونه ويتسلون بتعذيبه وضربه من غير أي سبب .

وضاعف الشرطة من ترصدهم للمصلين . وصار أمراً اعتيادياً أن يخرجوا رئيس المهجع ويسألونه عن أسماء الذين لا يزالون يصلون عنده . ولقد حدث ذلك معي مرات عديدة . فأخرجوني وسألوني وضربوني لأقدم لهم أسماء من يصلي أو يُدَرِّس في المهجع !

طلاق بالإكراه

ومن مشاهد تلك الفترة التي لا تزال تحضرني قصة طبيب أسنان من دمشق اسمه رضوان العمر استدعوه بعد حوالي تسع سنوات مضت على اعتقاله وأمروه في الذاتية أن يوقع على ورقة طلاق زوجته . وذعر الأخ .. ورفض أن يفعل . لكن جلسة التعذيب التي أتبعت رفضه جعلته يوافق مكرهاً . فكانت من ثم القاصمة له . ووجد نفسه بعد هذي السنوات يفقد زوجه وطفله من غير إرادته ومن دون أن يعرف السبب ، ومن قبلهما فقد شبابه وحريته مع ألوف من خيرة أبناء الوطن مثله . ولا أدري ما الذي حل بالأخ بعدها ، لكن آثار محنته الأخيرة تلك نزلت عليه كانت أثقل ربما من كل ما نزل به طوال سني اعتقاله . ولم يكن له ولا لنا أمام ذلك كله إلا التسليم والاحتساب .

الفأرة !

ولقد كان أمراً شائعاً منذ بدايات أيامنا في تدمر أن يأمرنا الجلادون بتناول بقايا الطعام من بين القمامة وأكلها عنوة ، أو التقاط ذبابة أو صرصار يصادفنا في الباحة وابتلاعه . ولم يكن بعضهم ليتورع عن البصاق على الأرض وإجبار واحد من السجناء على لحس بصاقه بعده . لكننا وعندما حان موعد الطعام في يوم من أيام عام 1989 ووصل الدور على مهجع 18 المقابل لمهجعنا على الباحة الرابعة سمعنا لغطاً من هناك أثار انتباهنا . فأسرعت كعادتي وجعلت أسترق النظر من شق في باب المهجع أستطلع الأمر . فرأيت الشرطة منكبين على رئيس المهجع من بيت خريطة من الزبداني - وكان نقيباً في الجيش قبل اعتقاله - يضربونه ويركلونه وهو عاري الصدر بين أيديهم ويأمرونه بابتلاع شيء بالإكراه يحمله بيده . فلما دققت النظر وجدتها فأرة ميتة ينهالون عليه ضرباً ويجلدونه واحداً بعد الآخر وهم يأمرونه أن يبتلعها . والأخ المسكين برغم كل هذا العذاب لا يستطيع أن يفعل . حتى إذا اشتد عليه الضرب وأرهقه الجلد وخارت قواه دسوا الفأرة في فمه دساً وبلعوه إياها ورموا به في المهجع . وكان يتولى كبر هذه العملية شرطي منهم كان يسمي نفسه أبا غضب . وكان أشد ما يحلو له أن يصفع الواحد منا بكفه التي تملؤ قدراً وتفيض فيكاد يخرق له طبلة أذنه وهو يقول بانتشاء : خذها من أبي غضب ولا !

ولم تمض من الزمن برهة حتى دق رئيس مهجع 18 الباب وأخبر الشرطة بشيء لم أفهمه تماماً . لكنني عدت وسمعت أصداء حديث يدور حول الفأرة . وفي المساء حضر أبو غضب إلى مهجعنا ونادى على المسؤول الصحي لدينا وكان الأخ غسان عبد الباقي من حماة ، وسأله ما الذي يمكن أن يحدث للإنسان إذا أكل فأرة .. هل يموت ؟ وقتها لم يجد الأخ إلا أن يتملص من الإجابة ويقول له لا . قال له أبو غضب : انقلع . وأقفل الباب ومضى . ولم نتبين ما الذي جرى للأخ بالتحديد ، لكننا أدركنا أن ضرراً أصابه ، وأنه لم يكن بالضرر المعتاد . الأمر الذي جعلهم يعطون الأمر بعض الأهمية فيسألون ويستفسرون !

إلى المزبلة !

وهكذا لم ينقطع العذاب أبداً . ولم يتوقف الإرهاب والضغوطات النفسية لا في الليل ولا في النهار . ولم يعد واحدنا ينعم بأدنى حد من الراحة حتى ولو في المنام . فكادت النفوس أن تنهار ، وبلغ الصبر فينا منتهاه . وانتهى الحال ببعضنا أن فقد عقله أو كاد . وفي ليلة باردة من ليالي شهر كانون الأول من عام 1989 صحونا على صوت أحد السجناء من مهجع 20 القريب يصيح ويشتم الشرطي بملء فمه . وسرعان ما حضر عدد من الشرطة العسكرية نحس وقع أقدامهم ونسمع أصواتهم ونادوا عليه يسألونه :

شو مالك ولا ؟

ولم يكن الحوار كله واضحاً لنا ، لكننا سمعناهم يأمرون رئيس المهجع أن يربط الأخ ويضعه في "البخشة" وهو الحمام كما كانوا يطلقون عليه . وفي الصباح جاء مساعد السجن محمد نعمة فأخرجه ورماه إلى الزبانية الذين وضعوه في الدولاب أمام المهجع وانهالوا عليه ضرباً جعله يهز الباحة بصراخه واستغاثته . وعندما أتى وقت التفقد أخرجوه مرة ثانية وجعلوا يضربونه ويعفسونه حتى لم يعد يبلغنا منه لا صوت ولا حركة . ثم أمروا رئيس المهجع أن يدخله . وبعد قليل قرع رئيس المهجع الباب وأبلغهم - ونحن نسمعه بآذاننا - أن واحداً في مهجعه قد توفي . فلم يزيدوا أن قالوا له - والله - :

خذوه وكبوه في الزبالة !

ورأيتهم من شق الباب يسحبون الأخ ويمضون به .. فيما مضى القتلة إلى برنامجهم المعتاد من غير أن يهتز لهم طرف أو تختلج فيهم عضلة !

انهيار

ومع تزايد الضغوط وبلوغ البطش الذي نناله من الشرطة حداً لا يوصف ظهرت بيننا حقيقة الأمر حالات من الانهيار النفسي لم تكن تدل على ضعف أصحابها قدر دلالتها على درجة التعذيب الوحشي والمعاناة المرة التي تتنزل علينا جميعاً حتى تفتن منا عن دينهم . وفي هذا الصدد أذكر تماماً أن واحداً من السجناء رفض ذات صباح أيقظوه فيه للصلاة أن يفعل . وأخذ الأخ - غفر الله له - الأمر موقفاً من يومها . وصار على الرغم من خلفيته الثقافية العالية يجيب سائليه بأن الله قال (إن تنصروا الله ينصركم) . وها نحن نصرناه فلم يجبنا وينتصر لنا فلماذا الصلاة إذاً ؟

وعلى الرغم من فظاعة القول وما تبعه ، ومع أن كل الذين لم يتزلزلوا عن إيمانهم بالله ولم يحيدوا عن إسلامهم كانوا يعانون نفس معاناة ذلك الأخ ويعيشون المحنة مثله ، إلا أننا عذرناه ودعونا له بالثبات والهداية . فإذا كان الفقر وحده كفراً أو يكاد ، فكيف بكل نوازل الفقر والقهر والعذاب والجوع والرعب تتنزل على تلك الفئة العزلاء من غير حول لها ولا قوة طيلة عشر سنوات !

350 جلدة !

لم يمض أسبوع على الجريمة الأخيرة للزبانية في مهجع 20 حتى وقعت محنتي أنا . فبينما كنت وباقي الإخوة في المهجع حوالي الساعة العاشرة صباحاً من يوم 89/12/20 حضر واحد من الشرطة العسكرية وناداني وقال :

رئيس المهجع لهون .

قلت : حاضر سيدي .

قال : شو هالصوت عندك ولا ؟

قلت : ما في عندي صوت سيدي .

قال : لأ الصوت عالي عندك .

قلت : حاضر سيدي بِنْوَطي الصوت .

ومن غير أن يزيد الكلام عن هذه العبارات حرفاً واحداً وجدته يبادرني ويقول :

أنا بدي أعمل هيك وهيك من أمك . شو ؟

فلما أردت أن ألتزم الصمت وأدع الاستفزاز يمر عاد وسألني باستفزاز أشد يريدني أن أجيب فأقع في حبال مكره :

شو ؟

قلت ولم يعد أمامي بد من الإجابة مكرراً ما قال حرفياً : أنا بدي أعمل هيك وهيك من أمك .

فصعق الزنيم وصاح وهو لا يكاد يصدق ما يسمع : أنت عم بتسبني يا ....

قلت أحاول أن أطفئ جهنم هذه التي اشتعلت في قلبه الأسود : لا سيدي . أنت قلت لي أن أعيد وراءك ففعلت !

فتركني هكذا مكاني وذهب مهرولاً إلى الذاتية ، ليعود بعد بضع دقائق ومعه المساعد وجمع من الشرطة يحمل أحدهم الدولاب . وتقدم الرقيب مني وسألني عم حدث فأخبرته . فقال لي مستهزئاً :

انزل في الدولاب إذاً فهذا لن يضرك .

فلم أجد مفراً من الانصياع . وما أن نزلت في الدولاب حتى نزلت العصي والسياط علي . وبدأت أصيح وأصيح وأصيح .. والألم ينهش جلدي ولحم قدمي اللتين تفتحتا تحت الضرب حتى لم أعد أحس بهما آخر الأمر . وعندما بلغت الضربات حوالي 350 جلدة أطلقوني . فلم أستطع العودة إلى المهجع إلا زحفاً . وارتميت على أقرب جدار وصلت إليه وأنا أكاد أغيب عن الوعي .

"فرخ راتب" !

غير أن وقت التفقد في المهجع لم يلبث أن حان . وكان المفروض أن أنهض وأقدم الصف باعتباري رئيس المهجع . فلما لم أقدر تولى نائبي الأخ عماد ذلك وقدم الصف . لكنهم ولما لم يجدوني أمامهم سألوه عني فأخبرهم أنني مريض . فأمروه أن يخرجني إليهم . فحملني الإخوة حملاً ووضعوني أمام الشرطة لينهال الزبانية علي ضرباً وركلاً من جديد . ويأمرونني أن أخرج لمثل هذا اللقاء كل يوم .

ومن يومها صار لزاماً علي أن أنال ثلاث وجبات من العذاب يومياً على أقل تقدير . وفق عدد المرات التي يفتح علينا الباب فيها . وعدا ذلك تولى في الليل أمري شرطي آخر كنا نسميه "فرخ راتب" لأنه أتى في صوته وشراسته على شاكلة شرطي آخر سبق وعانينا من عدوانيته وجبروته عام 84 اسمه راتب . فجاء "فرخ راتب" هذا أول ما جاء ليلتها وسأل أين رئيس المهجع . فقالوا له أنه مريض ونائم . فأمرهم بإيقاظي . فلما وقفت بين يديه أمرني أن أتولى الحراسة الليلية حتى الصباح . وكانت العادة أن يوزع رئيس كل مهجع هذه المهمة على عدد من السجناء ليكون نصيب الواحد منهم ساعة أو ساعتين من الحراسة وحسب . لكنه ألزمني بتولي المهمة كلها طوال الليل . وانتهت نوبة "فرخ راتب" عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وبقيت أنا أغالب النوم وأجتر الألم وأسأل الله الفرج . وعند الساعة الرابعة حضر "فرخ راتب" لنوبته الجديدة ونادى :

حرس ليلي .

فقفز قلبي من مكانه وناديت مجيباً : حاضر .

قال : اشلح بالشورت .

ففعلت وأنا أستعيذ الله بسري من شره ومكره . فلما فعلت أمرني أن أوقظ مساعدي ، فأيقظته . فقال "فرخ راتب" لي :

اجلس جاثياً .

فجلست . وأمر نائبي عماد أن يملأ بيدوناً بالماء ويصبه فوقي . فلم يجد الأخ إلا أن يطيع . وتكرر الأمر ، ونفّذ الأخ . وفي تلك الليلة الباردة من شهر كانون الثاني صب "فرخ راتب" علي سبعة بيدونات من الماء البارد ملأت أرض المهجع وبللت بطانيات كل من كان قريباً من مكاني . فلما انتهى أمرني أن أعاود الحراسة حتى الصباح فنفذت الأمر . وعند الساعة السادسة صباحاً سلم "فرخ راتب" نوبته ومضى . ولم يلبث أن عاد في السابعة وفتح الباب . وأمرني أن أبقى مكاني بالشورت حتى يطلبني من جديد .

وعندما حان وقت الإفطار ناداني إلى الخارج وانهال علي جلداً بالسوط حتى كاد يهلكني . ولم يخفف صراخي ورجاءاتي وتوسلاتي من الأمر شيء . حتى إذا أحس أنه أطفأ ظمأ الهمجية التي لديه أرسلني . فزحفت إلى المهجع زحفاً . وارتميت على الأرض أقرب للغيبوبة مني إلى الصحو . غير أن وقت التفقد لم يلبث أن حل . وخرج مساعدي يريد أن ينوب عني من جديد . لكنهم عادوا وسألوه عني . فلما أخبرهم أنني مريض ضربوه هو الآخر وأمروه أن يناديني لأقدم الصف .

وهكذا مضت الأيام والليالي على هذه الشاكلة أربعة أشهر أو ربما أكثر . حاول الإخوة خلالها أن يساعدونني في مناوبة الليل . فكنت إذا دنت نوبة "فرخ راتب" قمت وحرست . فإذا انتهى قام أحد غيري وسد مكاني . فإذا عادت نوبته أيقظوني لأقف من جديد . لكن الخبيث أرسل في يوم من الأيام شرطياً آخر ليتأكد من سهري . فلما وجد سجيناً غيري يقوم بالمهمة أخرجني وأخرج الحرس الليلي كلهم وجلدنا جميعاً . فصرت أضطر للوقوف الليل كله من جديد . وعندما وجدتهم قد علقوا على الأخ عماد أيضاً وكادوا أن يُجْمِلُونَه بالعذاب معي رأيتني أولى بذلك منه لأنني أنا الذي شتمت الشرطي . فصرت أخرج أغلب الأحيان إلى التفقد وتقدم الصف وتناول نصيبي المقدر من الضرب والتعذيب . حتى ساءت حالتي وأُنْهِكَ بدني وعدت فانتكست بالسل بعد أن شفيت منه . فكان ذلك - سبحان الله - الضارة النافعة . إذ لم يلبث المسؤول الصحي زاهي عبادي أن حضر للكشف على المرضى ، فلما رأى حالتي تلك طلب نقلي إلى مهجع المسلولين . فتم ذلك في شهر نيسان من عام 1990 وأنجاني الله من هذه المحنة وأنا على آخر نفس !

مزيد من المعلومات!

ومما هو جدير بالتسجيل عن عام 1990 هذا أن إدارة السجن أرسلت في شهر شباط تسأل في المهاجع عن آخر شخص جاءته زيارة من أهله أو أقاربه ، فأخبر كل مهجع عن الشخص المقصود . وفي اليوم التالي تم استدعاء هؤلاء جميعاً إلى الإدارة وعُرِضَ عليهم استئناف

الزيارات وبعض الميزات مقابل التعامل مع الإدارة بشكل واضح . وطلبوا منهم معلومات محددة عن حال السجناء في كل مهجع ، وعن الأفكار التي يتداولونها ، والقناعات التي لا زالوا يحملونها ، وهل ثمة من يدعو إلى الجهاد من بينهم ، وما مدى استعدادهم للتعامل مع قياداتهم السابقة ، ورأي كل منهم في هذه القيادات . ورغم أن الحدث كان مثيراً وقتها ، وعلى الرغم من بعض اللغط الخافت الذي ساد حينذاك ، إلا أن محن السنين الخوالي جعلتنا نألف أي جديد ونتقبل كل قضاء نازل بالصبر وبالاستسلام .

وفاة زاهي عبادي

عدت إلى مهجع السل 35 مرة أخرى فابتعدت عن "فرخ راتب" ومكره وعن العذاب والقهر بعض الشيء . وبدأت أتلقى علاج السل المتاح من جديد . حتى إذا تحسنت حالتي واستعدت قواي نقلت ثانية إلى مهجع 28 مع الأصحاء . ولم نلبث أن بلغنا على غير موعد نبأ مفاجئ بوفاة الأخ الحبيب زاهي عبادي بعد كل هذه السنوات التي أمضاها في خدمة إخوانه المسلولين والمعلولين صابراً محتسباً . وكانت الرواية التي بلغتنا أنه أصيب بخراج مفاجئ في قدمه فأخذوه إلى مستشفى خارج تدمر فعاد ميتاً ! لكن ذلك زاد الأمر غموضاً ، وجعلنا نرجح أنه قتل عمداً بعدما أمضى كل هاتيك السنوات متنقلاً بين المهاجع واطلع على الكثير من حالات السجن والسجناء . ولم يكن أي شيء في تلك الغابة مستغرباً .. ولم يكن أي حادث بشع أمراً مستبعداً بين قوم أسهل ما اعتادوا عليه سفك الدماء !

شاهد على مجزرة تدمر

قلت أن بعضاً من المهاجع كانت حينما وصلنا تدمر قبل أكثر من عشر سنوات لا تزال تحتفظ على جدرانها وأسقفها بآثار من مجزرة تدمر الكبرى في حزيران عام 1980 . ولقد حدث فعلاً وأن سمعت كباقي الناس عن المجزرة وأنا لا أزال في دمشق قبل اعتقالي ببضعة أشهر . ولقد تمكن وقتها أحد الإخوة من بيت وطفة من دمشق من أن يحصل على قائمة بأسماء الضحايا من ملفات وزارة الدفاع حيث كان يخدم جنديته الإلزامية ، وأوصلها للإخوة في قيادة دمشق الناشئة وقتذاك . وتم كشف الأخ من بعد وإعدامه في سجن تدمر نفسه . وكان العدد الرسمي كما أذكر في حدود الثمانمائة قتيل . لكنني طوال السنوات التي أمضيتها في سجن تدمر لم أجد بنفسي شاهداً على المجزرة ، حتى جمعتني الأقدار في تلك الفترة بسجين يميني من حماة توطدت علاقتي معه . فقص علي أنه كان معتقلاً منذ عام 1980 مع مجموعة من البعثيين العراقيين . وأن إدارة السجن فرزتهم منذ ذاك ووضعته في أحد مهاجع الباحة الرابعة بشكل منفصل عن سجناء الإخوان أو الاتجاه الإسلامي .

وذات ليلة صدرت الأوامر إليهم كلهم لينقلوا إلى مهجع 29 في الباحة السابعة بشكل مفاجئ . وصبيحة اليوم التالي بلغت أسماعهم أصوات طائرات مروحية تحلق فوق المهاجع وتنزل في مكان قريب . ولم تمض برهة حتى بدؤوا يسمعون أصوات الرصاص وانفجارات القنابل وصيحات التكبير في الباحات المجاورة . ثم لم تلبث الأصوات أن هدأت . وعادت المروحيات فغادرت المكان . ولم يتمكن أي من السجناء الآخرين وقتها من معرفة ما حدث . حتى تسربت أخبار المجزرة إليهم مع سجناء جدد حضروا بعدها وسمعوا بها من خارج الأسوار قبل اعتقالهم . وظل هذا الشخص على قيد الحياة حتى قدر لي أن ألقاه وأسمع شهادته . ورغم أنني لا أدري ما الذي حل بهذا الأخ ، إلا أنني أتمنى أن أراه يوماً على منصة الشهادة يروي قصته أمام محكمة عادلة . تعيد فتح ملفات الفظائع التي شهدتها جدران مهاجع تدمر وبقية أوكار المخابرات وسجونها وأقبيتها ، وتطبق في كل الجناة حكم الحق . عل أرواح الأبرياء التي أزهقت من غير ذنب تقر .. وترتفع عن هذا الوطن غباشة الطائفية المقيتة والظلم والجبروت .

آخر الوافدين !

مضت الأمور في السجن بعمومها نحو الهدوء النسبي . فالتعذيب الجماعي خفت حدته ، والضرب الوحشي قلت نسبته . ثم لم نلبث أن وجدنا الإدارة تقوم بفرز جديد للسجناء في شهر نيسان 1991 تم بموجبها تقسيمنا وتوزيعنا على مهاجع جديدة وباحات مختلفة . ووجدتني في هذا السياق أنقل هذه المرة إلى مهجع رقم 7 في الباحة الرابعة . وهناك أمضيت قرابة سنة أخرى خفت فيها المعاناة نوعاً ما ، وبدأنا نلحظ خلالها تحسناً نسبياً في الطعام ، كانت مادته الأساسية زيادة كمية الثوم !

ومن باحة مهجعنا السابع تلك كان على لجنة الإعدامات التي لم تتوقف أعمالها أبداً أن تمر من أمامنا مضياً في طريقها إلى الباحة السادسة لتنفذ الأحكام . وكنا نسمع أصواتهم ونتمكن أحياناً من التلصص عليهم من شقوق الباب . وفي نفس الوقت كنا نحس وصول الدفعات الجديدة من المعتقلين التي لم تتوقف أيضاً ونسمع أصوات استغاثاتهم وصياحهم من ساحة الذاتية المجاورة والباحة الأولى القريبة منا . وفي شهر تشرين الثاني عام 1991 كانت آخر دفعة جديدة من السجناء تصل تدمر على عهدي لتستقبلهم حفلة الاستقبال الرعيبة ذاتها .. وتبلغنا أصوات استغاثاتهم وصيحات الألم تزلزل المكان ولا تحرك في قلوب الزبانية شعرة ! وحتى لا تنتقل الأخبار ويطلع السجناء القدامى على مستجدات الأحداث في الخارج كان يتم عزل السجناء الجدد في مهاجع مستقلة فلا نلتقيهم ولا يلتقونا ، ولكن أصوات استغاثاتهم كانت أكثر من كافية لنعلم بوصولهم إلى هذا المكان الرعيب .

نعم للقائد !!

وذات يوم من نهايات تشرين الثاني أو بدايات كانون الأول عام 1991 . وبينما نحن في المهجع نجرع الأسى ونغص بالحسرات أقبل علينا مساعد السجن محمد نعمة وأبلغنا أن انتخابات لرئيس الدولة أوشكت أن تجري خلال أيام .. وأن علينا أن نظهر محبتنا وتقديرنا للقائد الأسد فنقول له "نعم" بالفم الملآن والصوت العالي .

ولم يكن من خيار أمام أحد في كل سورية إلا أن يقول تلك الـ"نعم" . تماماً كتلك التي قلناها لسليمان الخطيب حين أبلغنا بأحكام الإعدام أمام محكمته الهزلية . أو كتلك التي قالها الطبيب المسكين بعد حفل العذاب ليطلق زوجته . أو كالنعم التي كنا نقولها للشرطي إذا قال لنا أنه يريد أن يفعل كذا وكذا بأمهاتنا وأخواتنا . أو كآلاف وآلاف مثلها يقولها كل مواطن مقهور لا يملك لرد ظلم زبانية النظام وسفاهاتهم عوناً ولا سنداً .

وكتب رئيس المهجع قائمة بأسمائنا كلنا . ووقعنا وقلنا "نعم" . وكان الأنكى أن قام بعض من هدته المحنة وأنهكته المعاناة فاقترح أن نكتب العبارة "نعم للقائد" على واحد من قمصاننا البيضاء لا بالحبر أو بالدهان وإنما بدمنا ! وهرع البعض فاستجابوا وأحضروا من مسؤول المهجع الصحي إبرة وجعلوا يسحبون من أوردتهم ما يكفي من الدم ليكتبوا به على القميص !

بشارات !

وفي ليلة من ليالي شهر كانون الأول من عام 1991 وجدتني أستغرق في النوم فأرى في المنام الشرطة العسكرية يدخلون علينا في المهجع بملابسهم الكاكية وطاقياتهم الحمراء وسحناتهم البغيضة ويخبروننا بقرار انتقالنا من هذا المكان . ورأيتني أمضي إلى زاوية من زوايا المهجع اعتدنا أن نكدس فيها حقائبنا البالية فأحمل من بين الأكداس حقيبتي وتأتي مجموعة من الشباب فيفعلون ما فعلت . ورأيت علي دوبا رئيس فرع المخابرات العسكرية يمضي معنا أو نمضي معه فننطلق إلى باص كان بانتظارنا ونركب فيه جميعنا ونمضي . وبعد أن غادر الباص سجن تدمر وقطعناه بمسافة بعيدة انتهى المنام . فلما استيقظت وقصصت الرؤيا على الشباب حولي تفاءلوا وقالوا لي إن شاء الله يفرجها الله عليك .

ولم يمض يومان فقط حتى وجدت الشرطة ينادون اسمي بعد صلاة العصر وكان يوم أربعاء . فلما خرجت إليهم سألوني عن اسمي الكامل واسم أبي وأمي فأجبتهم . فلم يزيدوا أن قالوا لي من غير أي تعليق :

ضب أغراضك وجهز حالك لبرة .

وكنا جميعاً متعودين أن يأتينا مثل هذا الإيعاز في أي لحظة . سواء للانتقال من مهجع إلى آخر أو للخروج إلى الإعدام ! ووجدت الإخوة يلتفون حولي ويودعونني ولا يدري أحد منا إلى أين المصير . وخرجت وقد وضعت الطماشة على عيني وعقدت يدي خلف ظهري كالعادة ومضيت أتبعهم . فأدركت أنهم يقودونني باتجاه الساحة السادسة التي تنفذ فيها أحكام الإعدام . فجعلت أتقلب بين هواجس اقتراب النهاية وأحاسيس غامضة تبشرني من أعماقي بدنو الفرج . وجعلت أتساءل بيني وبين نفسي عن سبب اقتيادي إلى الباحة السادسة إذا كان هناك إفراج . ولماذا لم يأخذونني إلى الذاتية في الباحة الأولى لأخرج من حيث دخلت قبل عشرة أعوام أو أكثر !

ولم تطل بي التساؤلات التي قطعها توقف الركب وصوت باب يفتح ونداء واحد من الشرطة يقول لي :

أدخل ولا .

وأغلق الباب ورائي .. وأحسست أن الشرطة تركوني وذهبوا .. وأن ثمة من يشاركني هذا المكان الجديد ويهمهم حولي . وبحذر شديد أرسلت يدي من وراء ظهري إلى وسطي . فلما تأكدت أن أحداً لم ينتهرني أو يصرخ في رفعتهما إلى وجهي وفككت الطماشة عن عيني . فوجدتني محاطاً بعدد من السجناء يتطلعون في وأتطلع فيهم .

خير يا شباب شو في ؟

سألتهم متوجساً ومستغرباً .. فقالوا ببشاشة وبشر :

ان شاء الله خير . هناك إخلاء سبيل .

ماذا ؟

قلتها وأنا لا أكاد أصدق أو أستوعب ما قالوا . فكرروا علي وأكدوا لي . ولم يلبث أن أطل علينا من فوق الشراقة أحد الشرطة وقال لنا من غير أن نعرف السبب الشيء نفسه . ولم تمض نصف ساعة أخرى حتى فتح الباب من جديد فهرعنا من فورنا حسب العادة واتجهنا برؤوسنا إلى الجدار . وتقدم واحد ممن سبقوني فقدم الصف . وأحسسنا بدخول أشخاص عديدين وراءنا ، فتوجست خيفة وأنا أتوقع كل شر ولا أستغربه . وأتانا الإيعاز مرة واحدة :

وراء در .

فاستدرنا وعيوننا لا تزال مغمضة حسب التعليمات . لكن الإيعاز أتانا مرة أخرى يقول :

ارفع راسك ولا وفتح عينيك .

مفاجآت !

فتحت عيني يكاد يشلهما الخوف فراعني أن أنظر فأرى لأول مرة طوال تلك السنوات سحنة جلادينا بوجوه آدمية من لحم ودم . ولم يكن مألوفاً لي ولا لأحد ممن معي أبداً أن نبصر شخصاً في هذا المكان معافى في بدنه متأنقاً في ملبسه ، نبت الشعر في رأسه وشاربيه بشكل طبيعي وطال من غير أن تجرده آلة الحلاقة أو تشوهه الصفعات واللطمات !

وأمعنا النظر ونحن كالطفل الذي يطلع على العالم من حوله لأول مرة فرأينا مساعد السجن محمد نعمة ورئيس السجن نفسه غازي الجهني يقفان في مواجهتنا ومن ورائهما وعن أيمانهما وشمائلهما الزبانية يترصدوننا بنظراتهم الماكرة . وبعبارات مقتضبة أخبرنا العقيد الجهني أن سيادة رئيس الدولة أصدر عفواً عنكم .. وإن هي إلا أيام وتكونوا بين أهليكم . وأمرنا من ثم أن نخلع ملابسنا جميعاً ونبقى بالشورت فقط . والتفت إلى كومة من الملابس والأحذية العسكرية الجديدة فأمر الشرطة أن يوزعوها علينا ثم مضى ومعه المساعد والشرطة وأغلقوا علينا الباب .

عقدت المفاجأة ألسنتنا جميعاً وأصابتنا بالربكة إلى حين . حتى إذا هدأت النفوس واستقرت اتجهنا إلى بعضنا البعض نتساءل ونتداول ونحاول أن نجد تفسيراً لما يجري فلم نفلح . وأخذت أتملى في رفاق هذا المهجع الجديد فوجدتهم قرابة الخمسة والثلاثين شخصاً عركتهم المحنة وناءت بكلكلها عليهم مثلما فعلت بي ، فلم تترك فيهم إلا سحناً مصفرة وعيوناً ذابلة وأجساداً واهنة ..

وانقضى يوم الأربعاء ونحن في هذا المهجع الذي يسمى مهجع 6 على 2 الجديد نتجاذب أطراف الحديث ونتعرف على بعضنا البعض . وجاء الخميس وانقضى كما جاء ونحن نقطع الوقت بتبادل أخبار المهاجع وروايات العذاب والأسى . وكذلك حدث في اليوم التالي ونحن نقترب من الشك ونكاد ننتكس من التفاؤل إلى التشاؤم من جديد . حتى إذا كان صباح السبت وجدناهم ينادوننا للخروج من المهجع والانتظام في صف في الخارج أمامه . فخرجنا كذلك مغمضي العيون منكسي الرؤوس يلتصق واحدنا بأخيه خشية أن يتعثر . لكن الإيعاز جاءنا كذلك بأن نفتح عيوننا ونتطلع بشكل طبيعي . فلما فعلت وفتحت عيني هالني أن أنظر إلى هذا المكان الرعيب الذي ضمتني جدرانه وحملتني أرضه وأكلت عصي زبانيته وسياطهم من جسدي ما شاء الله أكثر من عشر سنوات فكأنني أراه الآن لأول مرة !

كان كل جدار أقابله كطود جاثم على صدري عشر سنوات من غير أن أراه . وكل باب غليظ مشبك بالحديد كشوكة في حلقي أبصرها الآن لأول مرة . وهذه الوجوه الكالحة وتلك القسمات الطاغية وهذه المهاجع المقفلة كالتوابيت كم مرة لطمتني أو عركتني أو حملتني وأنا رهين

المحبسين ترهقني ذلة الأسر ورهبة الظلام وقد أطبقت أجفاني على نوافذ الضياء بالإكراه فلا أرى خارج المهجع إلا الظلام وحسب !

بوابة المغادرين !

وسار ركبنا نحن الذين صدر العفو عنا كخط النمل يتجه نحو الباحة الخامسة وأنا أتوقع أن نمضي الآن إلى الذاتية لنتسلم أماناتنا ونسجل أسماءنا ونخرج من الباب الذي دخلنا منه . لكني وجدت الركب ينعرج بنا باتجاه المطابخ نحو باب خلفي للسجن اعتادت سيارات الجيش أن تدخل الطعام والمشانق منه وتخرج عائدة بالقدور الفارغة وجثث الموتى والمعدومين بنفس الوتيرة ونفس البرود ! وعلى مقربة من الباب وجدنا باص تويوتا أحمر اللون بانتظارنا فصعدنا إليه لا ننبس ببنت شفة . ورافقنا في باصنا الذي توزعنا على مقاعده واجمين ثلاثة عناصر من المخابرات العسكرية لم يكن يبدو عليهم الاكتراث بأمرنا . وكنت عندما أتملى فيهم أحس أنهم ربما لم يدروا أين أمضينا آخر عشر سنوات من أعمارنا أو حتى أنهم كانوا عندما دخلنا زنزانات الفرع الذي أتوا منه قبل اثنتي عشرة سنة خلت مجرد طلاب في المرحلة الإعدادية أو الثانوية على أبعد تقدير !

دمعة شكر

ومضى الباص بنا يزمجر على هذا الخط الضيق يسرع ساعة ويبطؤ أخرى . ونحن فيه كأننا الأطفال في أرحام أمهاتهم نشاهد العالم في الخارج من غير أن ندرك علاقتنا به أو مصيرنا فيه . والمشاهد من حولنا تتسارع وتتغير وتتبدل . والوجوه والبيوت والبهائم والسيارات والغيوم والسماوات كلها كالكلمات الغريبة في قاموس لغة نسيناها منذ أكثر من عقد خلى !

وارتددت إلى نفسي لحظة فجعلت أتذكر المنام الذي شاهدته قبل بضعة أيام وحسب . وجعلت أقارن الباص الذي ركبته في المنام وهذا الباص الذي يقلنا الآن . والجمع الذين هرعوا في الرؤيا لمرافقتي وجمع الإخوة الذين معي . ورئيس المخابرات العسكرية هناك وجنده هنا . ووجدتني من غير إرادة مني أتبسم وقد نسيت كيف تفتر الشفاه عن ابتسامة سعد . وأتجه بجوارحي كلها إلى الله العلي الرحيم أود أن أسجد له كل عمري شاكراً . فلم تجبني من كل هاتيك الجوارح المأخوذة بتسارع الأحداث وقتها إلا دمعة حرى طفرت من عيني على وجل .

وأسرع السائق بالحافلة .. وأسرعت بنا الخواطر والخيالات والتساؤلات والأماني والمخاوف كلها تتراكض فينا معاً . وعبرنا تدمر المدينة من غير أن نلفت فيها نظر أحد . وتخطينا حمص

مرقد خالد بن الوليد تغشاها كآبة ووحشة .. وأشرفنا على دمشق عاصمة الأمويين والمجد والفتوحات بالأمس .. ومهد المظالم والقهر ووكر الطائفية اليوم . وأكمل الباص بنا إلى فرع المخابرات العسكرية من جديد . وتسلمنا الزبانية كالعادة تغيرت وجوههم وأسماؤهم ولم يتغير من عدوانيتهم شيء . وبعد أن أخذوا أسماءنا وتسلموا أماناتنا أدخلونا على واحد من المهاجع تحت الأرض لنقضي ليلتنا هناك .

صفحة جديدة !

وفي اليوم التالي الثامن والعشرين من كانون الأول جمعونا كلنا في قاعة محاضرات واسعة ووزعونا على كراسيها الوثيرة . واعتلى مجموعة من الضباط المدنيين المنصة . وتقدم أحدهم منا فألقى فينا كلمة مقتضبة استهلها بالثناء على الرئيس القائد الذي يعرف الناس كل الناس أن الكرم من سماته .. وأنه ينظر إلى الشعب بعين الرأفة والعطف على الدوام .. ولذلك أصدر أمراً بالإفراج عنا بمناسبة إعادة انتخابه ! وقال لنا المتحدث أن بعضنا ربما لم يكن يستحق كل هذا الاعتقال الطويل .. وأن بعضنا الآخر نال الآن جزاءه . ودعانا أن ننسى كلنا الماضي ونبدأ صفحة جديدة من اليوم . فيذهب الطالب إلى مدرسته . والعامل إلى مصنعه . والموظف إلى وظيفته . ويعود الكل إلى حياتهم الطبيعية وينسوا الماضي . وختم المتحدث كلمته منوهاً أن الفرع سيوصل كلاً منا إلى محافظته ومدينته .

وانفض الاجتماع .. وجعل رجال المخابرات يقتادون كل مجموعة من المعتقلين إلى زاوية حسب محافظاتهم . ولما كنت الأردني الوحيد فقد اقتادوني مع أربعة عناصر منهم إلى سيارة اتجهت بنا إلى الحدود السورية الأردنية مباشرة . وعندما وصلنا مدينة درعا بعد منتصف الليل سلموني للشرطة المدنية هناك . وتقدم هؤلاء فسلموني بدورهم إلى المخابرات الأردنية على الطرف الآخر من الحدود ، ولم يزيدوا عن أن قالوا لهم أنني كنت موقوفاً لديهم . فلما استلمني الأردنيون وسألوني عن جوازي أو وثيقة تثبت شخصيتي لم أجد شيئاً أقدمه لهم . فعاد واحدهم وسألني منذ متى تم توقيفي . سألته : ما اليوم ؟ قال : 29 كانون الأول 1991 . قلت أرد على سؤاله : منذ أكثر من إحدى عشرة سنة إذاً . منذ الثامن من تشرين الأول عام 1980 . فكاد الرجل يصعق من المفاجأة . وعندما وصلت والدتي ووالدي وأختي بعد ساعات لاستلامي لم تكن مفاجأتهم أقل منه وهم يرون ولدهم الذي غادرهم ابن تسع عشرة سنة عاد إليهم اليوم ابن إحدى وثلاثين . ناحل الوجه ، حليق الرأس ، منهك القوى ، يرتدي ملابس العسكريين الكاكي وحذاء الجيش . ووجدتني أمام أهلي الذين غادرتهم أصحاء أشداء أنهكتهم بدورهم السنون وهدتهم اللوعة .

وهرعت إلى يدي والدي رحمه الله أقبلهما وإلى أمي أحضنها وأطلب منهما السماح . وجعلت والدتي تنظر في وجهي تتفرس فيه وتقول لي : أنت محمد ؟ أكيد أنت محمد ! وتناولت يدي

تقلبها وتُبَجِر فيها ولا تكاد تصدق ! وتناولت أنا يديها ألثمهما وأطلب منها مجدداً الرضا والسماح . وتدفقت عبراتنا جميعاً وخنقنا النشيج . واحدودب بعضنا على بعض وكأننا نتقي جورة الزمان وتربص المتربصين .

وأقفلت بنا السيارة تعود بي إلى بيت أهلي الغوالي بعد غيبة عقد ونيف من الزمان .. وكرت الأسئلة وتدفقت الحكايات .. وانفجرت الأحزان والآلام والحسرات حبيسة دهر من الزمان . دهر كل لحظة فيه كانت أثقل من الدهر كله .. وكل زفرة أو شهقة من أيامه لها حكاية تحكى .. ولوعة تفري الكبد .. وذكريات وشجى . لا توفي وصفها قواميس الأرض .. ولا تسبر أغوارها من الكلمات شيء .. ولا يمسح حرها إلا الرحمن الرحيم .

وبعد ..

فها هي ذي صفحات من ذكريات المحنة التي قدر لي أن أعيشها في سجون النظام السوري قد باتت جاهزة للتو تنتظر دورة المطبعة تأخذ مجراها . وإني إذ أحمد الله تعالى الذي يسر لي إخراج هذه الذكريات على شكل كتاب .. وأشكره من قبل ومن بعد أن نجاني وفرّج عني ومنّ بالحرية علي .. أود أن أسجل بعض نقاط أراها جديرة أن أختتم بها كتابي هذا ، سائلاً الله تعالى النفع والقبول .

1- مرت عدة سنوات على خروجي من سجن تدمر مررت فيها بظروف عديدة متغيرة ، مما جعلني أنسى الكثير مما شاهدت ورأيت وسمعت في تلك المحنة الرهيبة . ولقد حاولت فيما كتبت أن أتحرى الدقة قدر المستطاع ، وأن أوثق المعلومات التي سجلتها ما وسعني الجهد . لكني أعلم أن الكمال لله وحده ، وأن كل بني آدم خطاء . وللزمن حكمه كما يقولون . ولذلك أرجو أن يسامحني القارئ الكريم إن وجد أي نقص أو عجز أو خطأ فيما قرأ ، وليصحح لي كل من ملك معلومة مكملة أو إضافة مفصلة .

2- وفي هذا السياق ومن هذا المنطلق ، أدعو كل أخ مسه من فيح تلك المحنة جانب أو ناله من لظاها أذى ، وأدعو كل مواطن شهد على ممارسات النظام السوري القمعية مشهداً أو عرف خبراً أن يبادر ويسجل تجربته ويكتب مشاهداته وشهادته . ولو لم يكن لدى المرء فرصة للنشر اليوم أو كانت ظروفه لا تسمح الآن فغداً ستختلف الموازين وتتغير الأحوال إن شاء الله . لكن الأمانة تظل في أعناقنا والشهادة حق لا يقبل أن نكتمه . والذاكرة لن تدوم فيها المعلومات والذكريات كما هي اليوم . والعمر بيد الله لا ندري متى ينقضي . وإذا كان جيلنا قد عاصر جانباً من الأحداث واطلع على بعض أوجه النظام الديكتاتوري الطائفي في سورية ، فإن أجيالاً تالية وشعوباً أخرى تحتاج أن تعرف الحقيقة وتدرس ما حدث . ولا بد لكل من أراد أن يخطو على طريق الدعوة إلى الله أن يرصد تجارب سابقيه وخبرة المتقدمين عليه . أما أن تتكرر

التجارب متماثلة متشابهة لا تستزيد واحدتها من أخراها ولا يتعلم لاحقها من سابقها فتلك علة معلة وجمود مهلك . وسبب كاف لتكرار النوازل والمآسي والنكبات .

3- وحتى لا تتكرر النكبات وحتى تكتمل الفائدة من تسطير هذا الكتاب أراني واجباً علي أن أسجل خلاصة ما وصلنا إليه من قناعات ورؤى بعد سنوات محنتنا تلك . وإنني إذ أتحدث بضمير الجماعة هنا فإنما أقصد الغالبية من إخوة المحنة الذين جمعتني وإياهم على مدار سنوات متتالية القيود المطبقة والأبواب المغلقة .. وجلسات المصارحة والنقد الموضوعي والتقييم البناء . فوصلنا من بعد جدال وأخذ ورد إلى أن الإسلام الذي اعتنقناه واعتقدناه وحملناه في قلوبنا وامتحنا في سبيله وابتلينا .. هذا الإسلام لا زال من بعد كل هذه المحنة والعذاب والمشانق والمجازر هو الحق لم يتغير ، وهو الهدف لم يتبدل ، وهو الطريق لم نحد بإذن الله عنه . ولا زلنا حقيقة على قناعة خالصة بوجوب العمل لدين الله ونشر دعوته ، وحتمية تبليغ رسالته الخالدة لأنها الأمل الوحيد لنجاة البشرية جمعاء .

4- أما الذي توقفنا عنده وانكببنا على النظر إليه فهو الكيفية والوسيلة التي يمكن أن نحقق بها ما اعتقدناه . فمن خلال محنتنا وكربتنا .. وبعد الثمن الباهظ الذي دفعناه دماً وأرواحاً وزهرات من شباب الدعوة ورصيد من النجاح انهار وانقضى .. تبين لنا وتأكد وتحقق أن أول ما نحتاجه قبل أن نخطو أي خطوة تالية هو الصف المنظم الموحد . فوالله لم يؤت إخواننا المجاهدون في سورية - ولا في غيرها - من قلة مال أو سلاح أو عتاد ، ولم يهزمهم استبداد عدوهم أو قوة تسليحه أو شدة بطشه . ولكن التجربة أثبتت وأكدت أن الشر أتي من التنازع والاختلاف ، والبنيان تهدم من الفرقة قبل كل شيء .

5- أما القضية التالية التي وجدنا البدء من غيرها معناه التهلكة ، والمسير من غير أن تترسخ فينا نذير الضياع فهي التربية . ولقد كان أمراً عجباً أن تنفق كل الحركات الإسلامية جل جهدها وأكثر وقتها في الحديث عن التربية وتطبيقاتها ، ثم إذا فاجأتنا المحنة وجدنا أنفسنا أبعد ما نكون عن التربية الحقيقية وأكثر من يفتقدها !

وعندما أذكر التربية هنا فإنما أعني كل ما يندرج تحت هذا المسمى من أبواب : التربية الروحية .. والسلوكية .. والبدنية .. والعسكرية .. والتنظيمية .. والأمنية . وحتمية أن تجتمع كل هذه الأبواب في بناء شخصية الداعية . وإلا فما معنى أن يحضر شخص واحد باعترافاته مائة أخ من تنظيم سري ناشئ ؟ وكيف يفسر أن يضطلع فرد في هذا التنظيم بمسؤوليات تمكنه من معرفة كل الصف القيادي في التنظيم وعناصره الفاعلة وأسراره الخطيرة ومخابئ سلاحه ومواقع قواعده ورموز اتصالاته وكل صغيرة وكبيرة فيه !!

6- إن قناعتنا بعد كل هذه المحنة في وجوب مقاومة الظلم لم تتغير بفضل الله ولن تتغير . والعمل للإسلام لما يزل كيوم دخلنا المحنة واجباً حتمياً وأمانة ملزمة ، لكننا إذا أردنا أن نحمل هذه الأمانة فلنحملها بوعي كامل وكفاءة كافية .. أو نتنحى لمن هو أقدر وأكفأ .

إنني ومن بعد التجربة أؤمن اليوم أننا إذا تخلينا فسيهيئ الله تعالى من هو أقدر وأكفأ وأجدر على حمل الأمانة . أما إذا صممنا على تقدم الصفوف من غير إعداد كاف وكفاءة وحنكة فقد جنينا على أنفسنا وتجنينا على دين الله ودعوته . وهيهات هيهات أن ينصر قوم هذا حالهم وذاك الطريق الذي اختاروه .

هذه بعض ملاحظات أردت أن أختتم بها ذكريات المحنة وشهادة التجربة . سائلاً الله تعالى الرحمة والمغفرة وحسن الخواتيم . والحمد لله رب العالمين .

محمد سليم حماد

آب/1996

من سجل الشهداء

ليس من السهل أبداً أن يصدر إحصاء حقيقي عن عدد شهداء سجن تدمر أو أسماء أولئك الشهداء . فالإرهاب الذي يحيط حياة المعتقلين ابتداء ، والسرية التي تتم بها الإعدامات من بعد ، وانقراض الشهود تلو الشهود ، والتوتر والخوف والتنقلات ، وانتظار الموت الدائم .. كل ذلك يجعل المعتقل ذاهلاً عن كثير مما يدور حوله ، جاهلاً بما يحدث حتى خلف باب المهجع الذي يقبع فيه .

ومما رسخ في الذاكرة ، وبعد تمحيص وتدقيق ومراجعة متكررة ، أستطيع أن أثبت فيما يلي أسماء من شهدت إعدامهم بنفسي ، أو سمعت أسماءهم تتلى من سجل المطلوبين للإعدام ، أو بلغني من مصادر ثقة أن إعدامهم قد تم تنفيذه فعلاً . وغالب أولئك قضوا في سجن تدمر ، وقليل منهم أعدموا في سجن المزة وحمل إلينا الخبر القادمون ممن عاصروا إعدامهم هناك . وإني وأنا أسأل الله تعالى الرحمة والقبول للشهداء ، أؤكد ما هو معلوم من الأمر بالضرورة ، بأن عدد الذين قضوا على أعواد المشانق أو بأيدي الجلاوزة والزبانية . أضعاف أضعاف هذا الرقم . وأعود لذلك فأهيب بكل أخ شهد هذه المحنة أو علم عنها مهما علم ، أن يسجل ذاك الذي شهد ، ويوثق ما علم وما وعى ، عسى أن تكمل أمثال هذه الأعمال بعضها البعض ، وتكمل الجهود المتعددة صورة الفاجعة ، وتحفظ للأجيال مدى الشناعة التي اقترفتها الأيدي الآثمة ، بحق أبناء القطر السوري المنكوب .

من سجل الشهداء

رقم	الاسم	المدينة	المهنة	التاريخ	الكيفية
1	غالب حداد	حماة		1980	شنقاً
2	حسن الصغير	حمص	مجند	1981	شنقاً
3	عبد المجيد الدباغ	حمص	معلم رياضيات	1981	شنقاً
5	حسين الطنجي	حلب	طالب ثانوي	1981	شنقاً
6	أمين الأصفر	حماة	خريج المدرسة الشرعية	1981	شنقاً
7	محمد فخري	حماة	مهني	1981	شنقاً
8	مأمون كردي	حماة	طالب جامعي	1981	بالتعذيب
9	ناصح شنيطي	دمشق		1981	الكوليرا
10	جهاد حلاق	دمشق		1981	بالتعذيب
11	ناصر الدين البيك	حمص	طالب هندسة	1981	شنقاً
12	نعيم صيام	الأردن	طالب تجارة بحلب	1981	شنقاً
13	حسين رشيد عثمان	الباب/حلب	صحفي في وكالة الأنباء السورية	1981 أو 1982	شنقاً
14	أيمن عثمان	الباب/حلب	نقيب متطوع		شنقاً
15	جمال عقيل	حلب	طالب هندسة	1982	شنقاً
16	جلال الدين جلال	حلب		1982	شنقاً
17	محمد صادق العون	حماة	كلية الشريعة	1982	شنقاً
18	عبد الكريم غانم	دمشق	طالب هندسة	1982	شنقاً

19	كمال أندورة	دمشق	طالب كهرباء	1982	المرض
20	هشام مجندف	حمص	مجند بالآمرية	1982	المرض
21	بسام الهاشمي	حمص	طالب ثانوي	1982	المرض
22	سامي وحود	حمص	طالب ميكانيك	1982	المرض
23	زاهد داخل	حلب	طبيب	1982	بالتعذيب
24	حسان طرابيشي	حمص	طالب ميكانيك	1982	شنقاً
25	توفيق دراق السباعي	حمص	طبيب أعصاب	1982	شنقاً
26	عبد العزيز عوض سالم	صوران/حماة	مجند عسكري	1982	السل
27	يحيى عبد الكريم الشامي	حماة	طالب صيدلة	1982	بالتعذيب
28	عبد الوهاب حلموشي	حمص	طالب جامعي	1982	شنقاً
29	يوسف عبارة	حلب		1982	شنقاً
30	بسام سباعي	حمص	مهندس	1982 أو 1983	شنقاً
31	محمد صنوبر	دمشق	طالب بكالوريا	1983	شنقاً
32	عبد الحكيم	سراقب / إدلب	مدرس لغة عربية وملازم مكلف	1983	شنقاً
33	عبد الرحمن فليطاني	حمص	موظف	1983	السل
34	مصطفى	حلب	تاجر	1983	السل
35	عبد الساتر مصطفى	حمص		1983	السل
36	محمد حسن عجعوج	حماة		1983	السكتة القلبية
37	عبد الكريم الصالح	دير الزور	طالب هندسة	1983	شنقاً
38	مأمون الذهبي	دمشق	طالب بكالوريا	1983	المرض

39	أحمد دعدع	حماة	مهني	1983 أو 1984	شنقاً
40	عبد الكريم الصالح	الباب/حلب	طالب هندسة	1983 أو 1984	شنقاً
41	حسين العدم	الأردن	سائق سيارة	1983 أو 1984	شنقاً
42	عبد المعز العجمي	حمص	طالب هندسة	1984	شنقاً
43	نديم منصور	إدلب	خريج جامعي	1984	شنقاً
44	جمال عيار	حلب	خريج المدرسة الشرعية	1984	شنقاً
45	سحبان بركات	حماة	طالب زراعة	1984	شنقاً
46	.... العابدي	دمشق	تاجر	1984	شنقاً
47	ملهم الأتاسي	حمص	طالب جامعي	1984	شنقاً
48	طريف حداد	حمص	طالب بكالوريا	1984	شنقاً
49	هيثم ملا عثمان	دمشق	طالب هندسة	1984	شنقاً
50	عمر بدر	حمص	أعمال حرة	1984	شنقاً
51	يوسف عبيد	دمشق		1984	شنقاً
52	ضياء أسود	حلب	طالب هندسة	1984 أو 1985	شنقاً
53	عبد الكريم مهلهل	دير الزور	طالب طب	1984 أو 1985	شنقاً
54	.... سراج	دير الزور	طالب طب	1984 أو 1985	شنقاً
55	حزين قاسم	المعرة	مدرس ابتدائي	1985	السل
56	مصطفى المصطفى	منخ/حلب	خريج المدرسة الشرعية	1985	السل
57	.... عطار	حلب	طالب ثانوي	1985	شنقاً
58	...... عطار	حلب	طالب ثانوي	1985	شنقاً
59	أيمن عنجريني	حلب	طالب	1985 أو 1986	شنقاً

60	أحمد غنوم	حلب	عميد في الجيش	1986	شنقاً
61	عمر حيدر	المعرة	مدرس	1986	السكتة القلبية
62	طاهر العلو	حلب		1986	شنقاً
63	زاهي عبادي	دير الزور	طبيب	1990	غير واضحة
64	.... وطفة	دمشق	مجند عسكري		شنقاً
65	عبد الإله بعلبكي	قدسيا/ دمشق	مهندس		شنقاً
66	أحمد فطومة	حماة	مهني		بالتعذيب
67	طاهر عارف جيللو	سلقين/إدلب	مدرس ديانة		شنقاً
68	محمد أرمنازي	حماة			شنقاً (بالمزة)
69	مطاع أتاسي	حمص	طبيب		شنقاً

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس